تحديات قرن هجري جديد : جزء خاص

# العربي

ذو الحجة ١٤٠٠ هـ نوفمبر تشرين (٢) ١٩٨٠ م

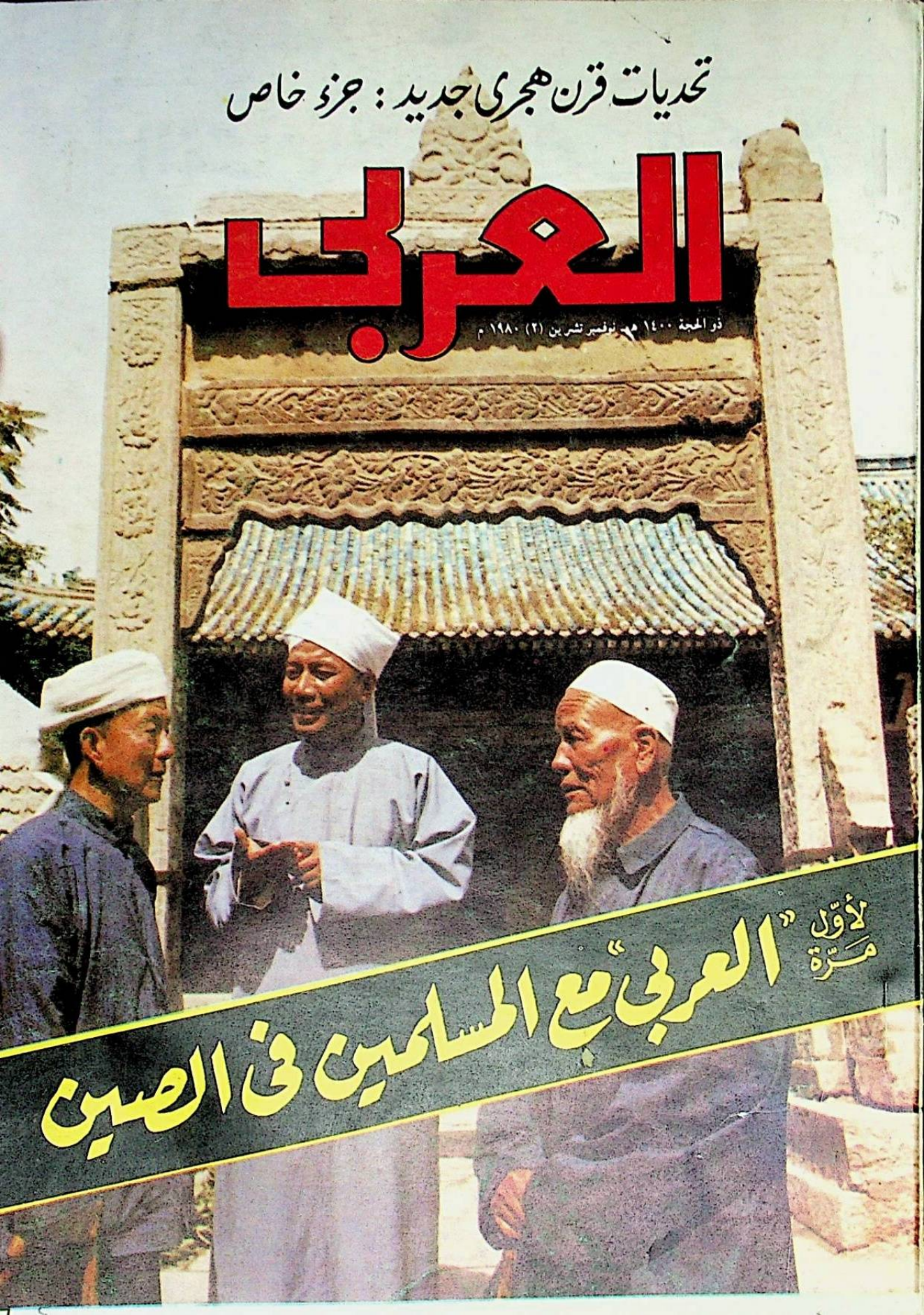

لأول مرة "العربي" مع المسلمين في الصين

العربي

أول مجلة في العالم تذهب إلى مسلمي الصين

# الله في الصين

استطلاع: فهمي هويدي

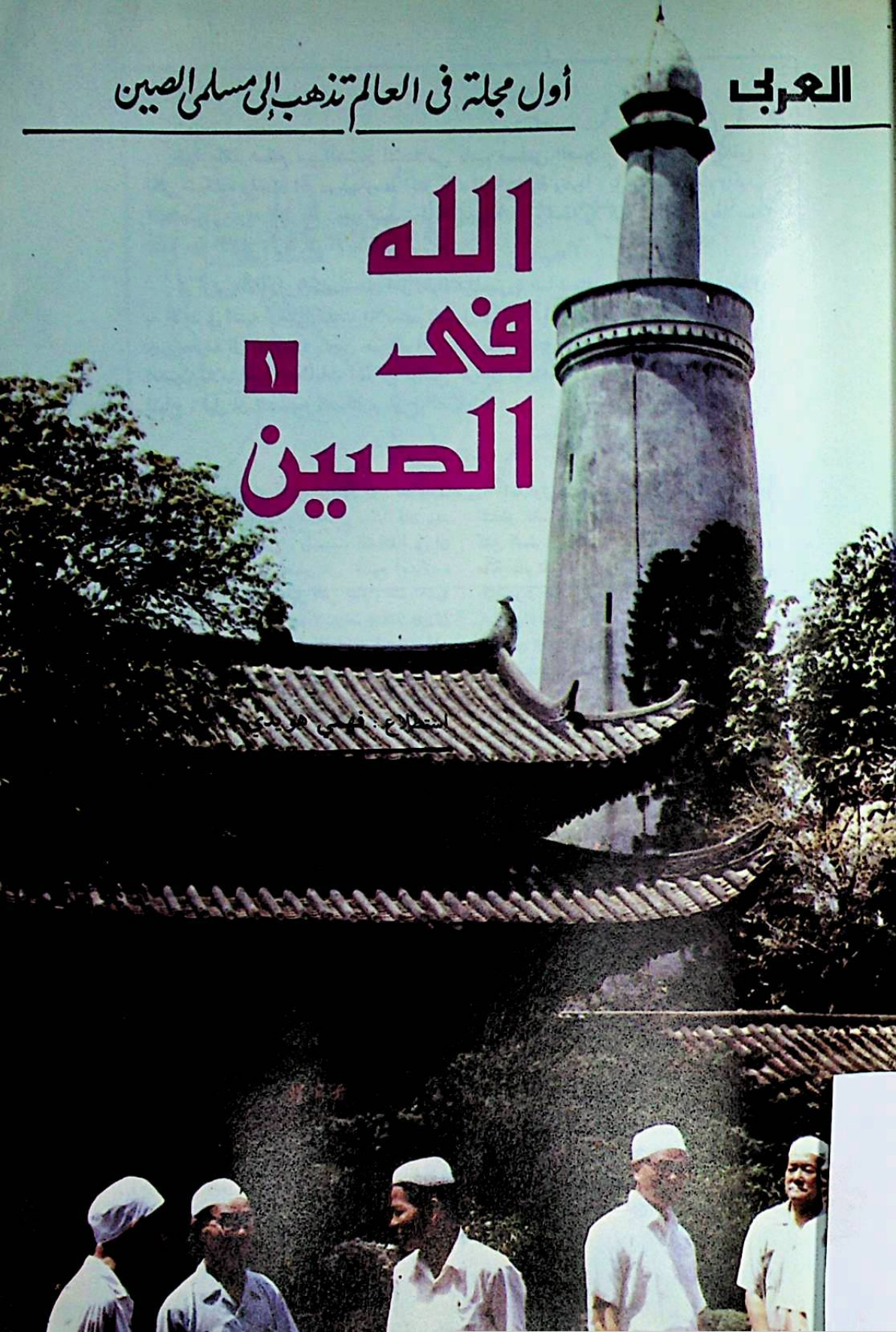

ثمة مكان معروف في التصور الاسلامي باسم مسلمي الصين . ملف موجود ومفقود ، لكن مسكنه معلوم . انه موجود وسط أكثر بلاد العالم عزلة وتفردا ، بل وسط اضخم واغرب محيط بشري عرفه البشر حتى . وهو محيط شطآنه بغير نهاية ، وعمقه بلا قرار . والغازه وطلاسمه محتدة منذ الازل ، ويا الى الابد .

في ارض الاسرار الخالدة عند أقصى اطراف المعمورة ضاع ملف مسلمي الصين ، وطال به الامد في التيه ، حتى كادت ملايينهم تتحول في الذاكرة الاسلامية من بشر الى اشباح ، ومن حقيقة الى اسطورة ، ومن خبر نقرأ . وشغلنا نقرأ في الكتب والابحاث عن مسلمي الصين كلاما اشبه بحكايات الجدات ، نلهي صغارنا ما يعضب معينها ، وينفد منها الكلام المباح ، قبل ان تتصايح الديكة ويلوح الصباح !

ليست المشكلة في ان تصل الى الصين ، فلم يعد الامر يحتاج الى « شجاعة الشجعان » كما كان يردد الجغرافيون العرب القدامى . وليست المشكلة في ان تدخل باب الصين الذي تعذر على الجميع اجتيازه ، فوقفوا ، بما فيهم تجار الحرير قبل الفي عام ، عند الحدود يسلمون ويتسلمون . ذلك انهم لا يمانعون الان في ان يدخل البعض ، شريطة ان يظل المفتاح في ايديهم ، وان يتحرك الغرباء تحت اعينهم . لكن المشكلة الحقيقية ان تنفذ الى اعماق الصين ، لتصل الى جوهر اية قضية ، المسلمون او غيرهم . ان تعرف ما بداخل هذه « الشرنقة » العتيدة . فاذا اتيح لك ان تجتاز ابواب سور الصين المرئي ، فان من رابع المستحيلات ان تنفذ وراء ملايين تلك الاسوار غير المرئية التي تنتصب شاهقة في اعماق الصينيين مانعة كل اختراق ومحبطة كل عبور ، وحاجبة الرؤية عن الجميع . وهي الحقيقة التي ادركها الباحث الالماني الكونت كيسرلنج بعدما أعيته ظاهرة اللاقرار لذلك المحيط الهائل ، فكتب يقول : ان الصيني هو اعمق رجل في العالم .

حطت بنا الطائرة في كانتون ..

وهي مصادفة لها مغزاها ، ان تكون كانتون هي اول ما نصافحه من وجوه الصين الموقع . وهي ذاتها اول ما كان يتوقف عنده الرحالة والتجار العرب القدامى ، الذين قصدوا الصين بالبحر ، وكان اولهم فيما تذكره المصادر العمانية تاجر عماني الاصل هو ابو عبيدة عبد الله بن القاسم . الذي اقلع من عمان الى كانتون حوالي عام ( ١٣٣هـ ـ ٧٥٠م ) ليشتري من هناك الصبار والاخشاب ، وهو الرجل الذي اطلق عليه وصف « السندباد » .

اما اول مدونة عربية عن رحلة بحرية الى هذه المناطق فقد كتبها تاجر عربي آخر اسمه سليمان ، كان كثير السفر الى الهند والصين ، وقد كتب في مدونته بعد مائة عام تقريبا من رحلة أبي عبيدة ، وقال فيها ان خانقو ( كانتون الآن ، التي ينطقها الصينيون كوانجو ) هي : مرفأ السفن ومجتمع تجارات العرب واهل الصين . اما ابن بطوطة ، الذي قام برحلته الى الصين بعد خمسة قرون من التاجر سليمان ، فقد اطلق عليها اسم صين الصين او صين كلان . واعتبرها « من اكبر المدن واحسنها اسواقا » ، مضيفا ان بينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستين يوما ، رغم قوله « ولم أر بتلك البلاد من رأى السد ، ولا من رأى من رآه » !!

هذه اذن هي بوابة الصين الجنوبية ـ اقرب ميناء جوي بحري الى الحدود ـ التي تتم فيها اجراءات الدخول ، ليحتجز من لم يستكمل الاجراءات قبل الوصول الى العاصمة . وهو نظام عتيق في الصين ، عمره اكثر من عشرة قرون ، ان يتم احتجاز الاجانب على الحدود ، وتفرز بضاعة كل منهم ووثائقه ، قبل ان يسمح له بالدخول . لذلك لم يكن غريبا ان تعتبر كانتون ـ وهي المدينة الحدودية ـ « مجتمع تجارات العرب واهل الصين » . ولا يزال شارع التاجر العربي هو الذي يتركز حوله ما تبقى من مجتمع المسلمين بالمدينة الى الآن .

كان المطار هادئا ، الا من دراجات تذرعه جيئة وذهابا ـ بديلا عن السيارات التي تستخدم في مختلف مطارات العالم ـ والموظفون متناثرون على طول المسافة بين سلم الطائرة وقاعة الانتظار ، يفحصون القادمين بأعين ملؤها الترقب والفضول ، وهو مشهد لم يخل من غرابة وطرافة . لان القادمين ايضا كانوا يتفرسون في

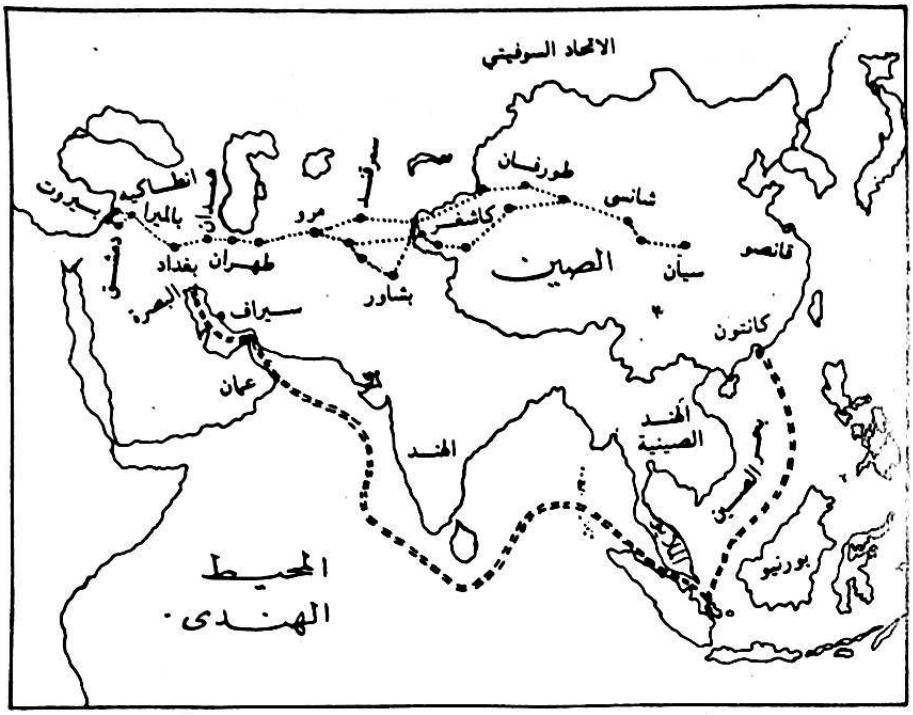


خريطة تبين طريقى الاتصال بين الصين والعالم العربي في الازمنة القديمة ، طريق الحرير البرى ، وطريق البحر الذى كان يصل فيما بين الخليج وشواطئ جنوب الصين .

---

وجوه الصينيين بفضول اشد ، وبدا كما لو كان كل فريق يتعامل مع الاخر باعتباره قادما من كوكب مختلف ، وعالم مختلف .

كنا قادمين من صخب وعربدة وجنون هونج كونج ، وهو ما ظلت اصداؤه تطن في آذاننا حتى هبطت بنا الطائرة في كانتون ، اذ المسافة بين الجزيرة والمدينة لا تستغرق اكثر من نصف ساعة بالطائرة .

اصابنا هدوء مطار كانتون مع بساطة الناس فيه وابتساماتهم ووداعتهم البالغة ، بشعور عميق بالسكينة والامان ، فانت في هونج كونج تتعامل مع كائن مزيف وملفق . لا هو صيني ولا هو ياباني ولا هو امريكي ، او اوروبي . لاهو مع الفضيلة ولا ضد الرذيلة ، بل هو خليط من ذلك كله . اقنعة ورقع من هنا وهناك ، مصبوغة بالوان زاهية وصارخة ، جذابة وكاذبة . اما في كانتون ، فانت تتعامل مع كائن محدد الملامح ، واضح الشخصية ، صادق مع نفسه على الاقل .

وكانت محطتنا التالية هي بكين ...

طوال ثلاث ساعات ، ظللت احملق في وجه الصين من الجو ، غير مصدق انني ذاهب ـ اخيرا ـ الى عاصمة مملكة الاسرار .

من الطائرة تبدو الصين وقد ادارت ظهرها للعالم وانفصلت عنه ، بالصحاري والهضاب والجبال الهائلة على اليابس ، وبالمحيط الاعظم من ناحية البحر . واقامت فيما بين البر والبحر عالمها المثير والفريد ، الذي يتخلله خمسة آلاف نهر ، وتتعلق به الفا جزيرة ، ويعيش في دروبه الف مليون نسمة ( بالدقة ، ٩٨٥ مليونا حسب تقديرات النصف الثاني من العام الحالي ) ، وترقد على ظهره ثروات زراعية هائلة ، وفي جوفه ثروات طبيعية بلا حصر ، وتظلله حضارة ٥ آلاف سنة من التاريخ المكتوب .

من الجو تدرك انك تتعامل مع كائن يتعذر الالمام به ، كائن فوق الاحاطة وفوق الاستيعاب ، وتكتشف ان كل ما كتب عن الصين لم يقدمها ، بقدر ما كان يعبر عن القدر من الرؤية الذي اتيح للكتاب ان يحصلوه من تجربة ذلك العالم المثير .

ربما كانت مهمتنا أيسر ، نسبيا . فنحن ذاهبون في محاولة للعثور على ملف مسلمي الصين ـ الموجود

ثمة ملف ضائع من الضمير الاسلامي باسم مسلمي الصين . ملف موجود ومفقود ، لكن مشكلته وعقدته انه موجود وسط أكثر بلاد العالم عزلة وتفردا ، بل وسط اضخم واغرب محيط بشري عرفه التاريخ . وهو محيط شطآنه بغير نهاية ، وعمقه بلا قرار . والغازه وطلاسمه ممتدة منذ الازل ، ربما الى الابد .

في ارض الاسرار الكامنة عند آخر اطراف المعمورة ضاع ملف مسلمي الصين ، وطال به الامد في التيه ، حتى كادت ملايينهم تتحول في الذاكرة الاسلامية من بشر الى اشباح ، ومن حقيقة الى اسطورة ، ومن خبر الى اثر ! .. وبتنا نقرأ في الكتب والابحاث عن مسلمي الصين كلاما اشبه بحكايات الجدات ، التي سرعان ما ينضب معينها ، وينفد منها الكلام المباح ، قبل ان تتصايح الديكة ويلوح الصباح !

ليست المشكلة في ان تصل الى الصين ، فلم يعد الامر يحتاج الى « شجاعة الشجعان » كما كان يردد الجغرافيون العرب القدامى . وليست المشكلة في ان تدخل باب الصين الذي تعذر على الجميع اجتيازه ، فوقفوا ، بما فيهم تجار الحرير قبل الفي عام ، عند الحدود يسلمون ويتسلمون . ذلك انهم لا يمانعون الان في ان يدخل البعض ، شريطة ان يظل المفتاح في ايديهم ، وان يتحرك الغرباء تحت اعينهم . لكن المشكلة الحقيقية ان تنفذ الى اعماق الصين ، لتصل الى جوهر اية قضية ، المسلمون او غيرهم . ان تعرف ما بداخل هذه « الشرنقة » العتيدة . فاذا اتيح لك ان تجتاز ابواب سور الصين المرئي ، فان من رابع المستحيلات ان تنفذ وراء ملايين تلك الاسوار غير المرئية التي تنتصب شاهقة في اعماق الصينيين مانعة كل اختراق ومحبطة كل عبور ، وحاجبة الرؤية عن الجميع . وهي الحقيقة التي ادركها الباحث الالماني الكونت كيسرلنج بعدما أعيته ظاهرة اللاقرار لذلك المحيط الهائل ، فكتب يقول : ان الصيني هو اعمق رجل في العالم .

حطت بنا الطائرة في كانتون ..

وهي مصادفة لها مغزاها ، ان تكون كانتون هي اول ما نصافحه من وجوه الصين الموقع . وهي ذاتها اول ما كان يتوقف عنده الرحالة والتجار العرب القدامى ، الذين قصدوا الصين بالبحر ، وكان اولهم فيما تذكره المصادر العمانية تاجر عماني الاصل هو ابو عبيدة عبد الله بن القاسم . الذي اقلع من عمان الى كانتون حوالي عام ( ١٣٣هـ ـ ٧٥٠م ) ليشتري من هناك الصبار والاخشاب ، وهو الرجل الذي اطلق عليه وصف « السندباد » .

اما اول مدونة عربية عن رحلة بحرية الى هذه المناطق فقد كتبها تاجر عربي آخر اسمه سليمان ، كان كثير السفر الى الهند والصين ، وقد كتب في مدونته بعد مائة عام تقريبا من رحلة أبي عبيدة ، وقال فيها ان خانقو ( كانتون الآن ، التي ينطقها الصينيون كوانجو ) هي : مرفأ السفن ومجتمع تجارات العرب واهل الصين . اما ابن بطوطة ، الذي قام برحلته الى الصين بعد خمسة قرون من التاجر سليمان ، فقد اطلق عليها اسم صين الصين او صين كلان . واعتبرها « من اكبر المدن واحسنها اسواقا » ، مضيفا ان بينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستين يوما ، رغم قوله « ولم أر بتلك البلاد من رأى السد ، ولا من رأى من رآه » !!

هذه اذن هي بوابة الصين الجنوبية ـ اقرب ميناء جوي بحري الى الحدود ـ التي تتم فيها اجراءات الدخول ، ليحتجز من لم يستكمل الاجراءات قبل الوصول الى العاصمة . وهو نظام عتيق في الصين ، عمره اكثر من عشرة قرون ، ان يتم احتجاز الاجانب على الحدود ، وتفرز بضاعة كل منهم ووثائقه ، قبل ان يسمح له بالدخول . لذلك لم يكن غريبا ان تعتبر كانتون ـ وهي المدينة الحدودية ـ « مجتمع تجارات العرب واهل الصين » . ولا يزال شارع التاجر العربي هو الذي يتركز حوله ما تبقى من مجتمع المسلمين بالمدينة الى الآن .

كان المطار هادئا ، الا من دراجات تذرعه جيئة وذهابا ـ بديلا عن السيارات التي تستخدم في مختلف مطارات العالم ـ والموظفون متناثرون على طول المسافة بين سلم الطائرة وقاعة الانتظار ، يفحصون القادمين بأعين ملؤها الترقب والفضول ، وهو مشهد لم يخل من غرابة وطرافة . لان القادمين ايضا كانوا يتفرسون في

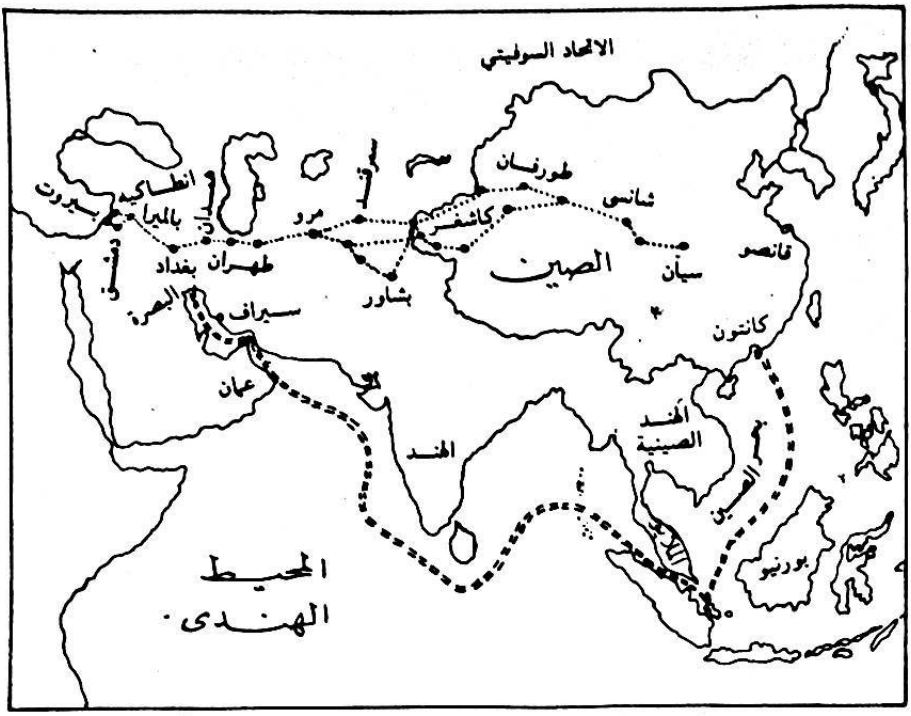


خريطة تبين طريقى الاتصال بين الصين والعالم العربي في الازمنة القديمة ، طريق الحرير البرى ، وطريق البحر الذى كان يصل فيما بين الخليج وشواطئ جنوب الصين .

---

وجوه الصينيين بفضول اشد ، وبدا كما لو كان كل فريق يتعامل مع الاخر باعتباره قادما من كوكب مختلف ، وعالم مختلف .

كنا قادمين من صخب وعربدة وجنون هونج كونج ، وهو ما ظلت اصداؤه تطن في آذاننا حتى هبطت بنا الطائرة في كانتون ، اذ المسافة بين الجزيرة والمدينة لا تستغرق اكثر من نصف ساعة بالطائرة .

اصابنا هدوء مطار كانتون مع بساطة الناس فيه وابتساماتهم ووداعتهم البالغة ، بشعور عميق بالسكينة والامان ، فانت في هونج كونج تتعامل مع كائن مزيف وملفق . لا هو صيني ولا هو ياباني ولا هو امريكي ، او اوروبي . لاهو مع الفضيلة ولا ضد الرذيلة ، بل هو خليط من ذلك كله . اقنعة ورقع من هنا وهناك ، مصبوغة بالوان زاهية وصارخة ، جذابة وكاذبة . اما في كانتون ، فانت تتعامل مع كائن محدد الملامح ، واضح الشخصية ، صادق مع نفسه على الاقل .

وكانت محطتنا التالية هي بكين ...

طوال ثلاث ساعات ، ظللت احملق في وجه الصين من الجو ، غير مصدق انني ذاهب ـ اخيرا ـ الى عاصمة مملكة الاسرار .

من الطائرة تبدو الصين وقد ادارت ظهرها للعالم وانفصلت عنه ، بالصحاري والهضاب والجبال الهائلة على اليابس ، وبالمحيط الاعظم من ناحية البحر . واقامت فيما بين البر والبحر عالمها المثير والفريد ، الذي يتخلله خمسة آلاف نهر ، وتتعلق به الفا جزيرة ، ويعيش في دروبه الف مليون نسمة ( بالدقة ، ٩٨٥ مليونا حسب تقديرات النصف الثاني من العام الحالي ) ، وترقد على ظهره ثروات زراعية هائلة ، وفي جوفه ثروات طبيعية بلا حصر ، وتظلله حضارة ٥ آلاف سنة من التاريخ المكتوب .

من الجو تدرك انك تتعامل مع كائن يتعذر الالمام به ، كائن فوق الاحاطة وفوق الاستيعاب ، وتكتشف ان كل ما كتب عن الصين لم يقدمها ، بقدر ما كان يعبر عن القدر من الرؤية الذي اتيح للكتاب ان يحصلوه من تجربة ذلك العالم المثير .

ربما كانت مهمتنا أيسر ، نسبيا . فنحن ذاهبون في محاولة للعثور على ملف مسلمي الصين ـ الموجود

بعض من بقايا الماضي البعيد ، احدى نقاط طريق الحرير في الشمال الغربي ، وقد تحولت طرقه القديمة الممهدة التاريخ . ثم ( الى اليسار ) تمثال مصغر لواحد من « تجار الغرب » ، المسلمين الفرس في الاغلب ،

الى مرعى ترتع فيه الابل ، ولا يسكنه سوى
الذين لا تخلو من صورهم متاحف الصين الان .

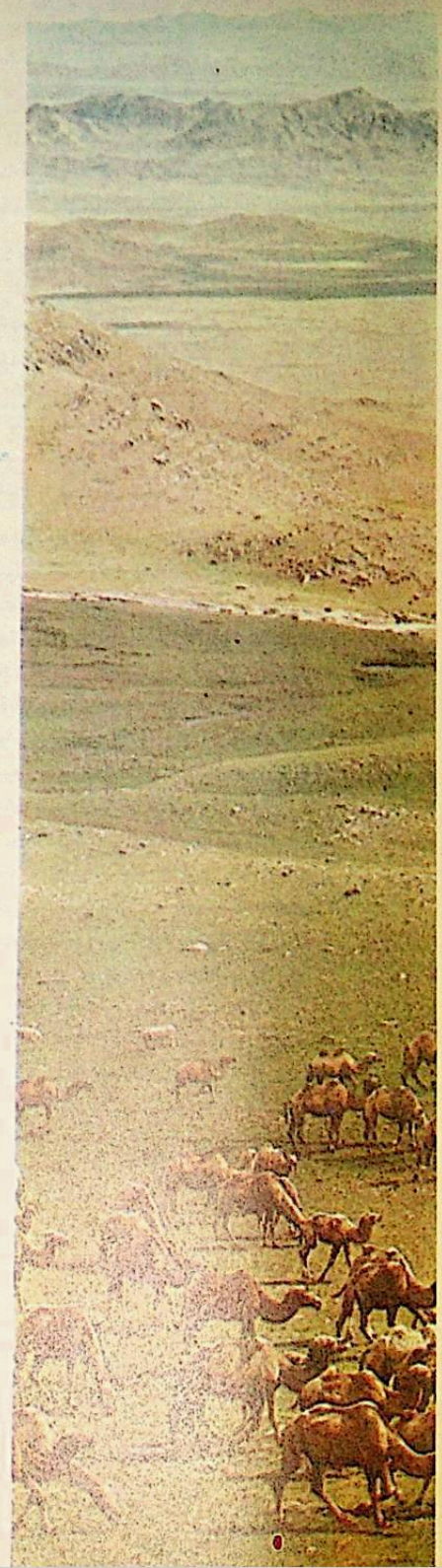

المفقود ـ ثم قراءة بعض صفحاته بالقدر المتاح . ورغم ان مسلمي الصين هم قطرة في ذلك البحر المترامي الشطآن ، الا ان الموضوع له مجاهله التي تحتاج الى الحاح واقتحام . فالغازه وطلاسمه ليست مقصورة على الحاضر وحده ، ولكنها تنسحب على الماضي ايضا . ونادرة هي الكتابات العربية ، وحتى الاجنبية ، التي اهتمت بمسلمي الصين . سواء في ماضيهم او حاضرهم . وللدقة اقول انه اذا كانت الكتابات عن صفحة الماضي قليلة او نادرة ، فهي تكاد تكون منعدمة فيما يتعلق بواقع المسلمين الان . وربما كنا اول بعثة صحفية منذ تحرير الصين في عام ١٩٤٩ ، يسمح لها بان تجتاز ابواب سورها العظيم ، لتزور مناطق المسلمين ، بما فيها مناطق كانت مقفلة في وجه الاجانب حتى سنتين مضتا ، مثل مدينتي اورموش وتوربان في مقاطعة سينكيانج .

## لماذا فتحوا الأبواب

لماذا فتح الصينيون الابواب لنا على هذا النحو ؟. شغلني السؤال ، فصرت اطرحه على الذين لقيتهم في بكين ، من الاجانب والصينيين .

قالوا : ان المد الاسلامي المتعاظم الآن في انحاء كثيرة ، كان لابد ان يقابل من جانب اي دولة لها مصالح مع المسلمين ، بقدر متكافيء من الاهتمام . وهم في الصين منكبون الآن على ترجمة ونقل العديد من الكتب الاسلامية ، وعلى سبيل المثال ، فان كتب احمد امين ، فجر وضحى وظهر الاسلام ، وكتب الدكتور حسن ابراهيم ، الاسلام السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، هذه الكتب وغيرها ، قيد الترجمة الآن من العربية الى الصينية . ( تمت ترجمة « فجر الاسلام » فعلا ) .

وعندما يكون مسرح هذا المد الاسلامي هو مناطق البترول والطاقة ، فان الاهتمام بالظاهرة لابد ان يكون اعظم ، والالحاح على اقامة جسور قوية مع هذه المناطق لابد ان يكون اشد . وفضلا عن عامل البترول ، فان اكثر مناطق البترول هذه ـ دول الخليج خاصة ـ هي بمثابة اسواق هامة للمنتجات الصينية ، من التحف الى « الدشاديش » !

قالوا ايضا : فتش عن السوفيت في أي قرار صيني الان . وقد كان الغزو السوفيتي لافغانستان في ٢٧ ديسمبر ٧٩ ، بمثابة نقطة تحول في السياسة الصينية تجاه الاسلام والمسلمين . ففي اعقابه مباشرة نشطت السياسة الصينية في اتجاه مجاملة المسلمين ، لاجل ان يظهر امام الجميع ان السوفيت هم المعتدون على الاسلام والمسلمين ، بينما يقف الصينيون في المربع المعاون والداعم للاسلام والمسلمين .

وهذه الرسالة كانت موجهة الى العالم الخارجي من ناحية ، والى المسلمين الصينيين من ناحية اخرى ، وهم الذين تمتد مناطق تجمعاتهم الاساسية ( سينكيانج ) على الحدود المتاخمة للاتحاد السوفيتي .

وقد تجسد هذا الاهتمام بالمسلمين في داخل الصين ، في الدعوة لعقد المؤتمر الرابع للجمعية الاسلامية الصينية بعد ثلاثة أشهر فقط من الغزو السوفيتي لأفغانستان ، وهو المؤتمر الذي انعقد في بكين العاصمة ، في ابريل ٨٠ ، بعد غيبة ١٧ عاما . ( المؤتمر الاول عقد لتأسيس الجمعية سنة ٥٣ ، والثاني والثالث عقدا ، سنتي ٥٦ و ٦٣ على التوالي ) . ثم عقد مؤتمر آخر لمسلمي مقاطعة سينكيانج ـ معقل المسلمين ـ في اوائل يوليو ٨٠ .

وفي ذلك المؤتمر الرابع للجمعية الاسلامية الصينية ، القى نائب رئيس الجمعية خطابا ، استهله بقوله « ان الجمعية حققت منذ تأسيسها عام ١٩٥٣ ، كثيرا من النتائج الحميدة ، تحت قيادة الحزب الشيوعي الصيني ، ورعاية وتأييد الحكومة الشعبية » .. ثم اعلن انه « بعد سحق عصابة الاربعة ، فقد فتحت الآن بعض المساجد من جديد ، واما البعض الآخر فشرع في اصلاحه وترميمه ، وسوف يفتح ابوابه ايضا في المستقبل القريب حسب الظروف الواقعية للمناطق . الى جانب ذلك ـ اضاف نائب الرئيس ـ اصبحت الحياة الدينية للمسلمين الصينيين تسير على نحو طبيعي بصورة تدريجية ، مثل تلاوة القرآن الكريم ، واداء الصلاة والصوم . كما لقيت من جديد التقاليد الاسلامية المتعلقة بالموت وعادات الاطعمة ، الاحترام اللائق بها . » !

قالوا ايضا : انه بالاضافة الى عاملي المصلحة ومهاجمة السوفييت ، فان هناك ـ من جهة ثالثة ـ مناخا من الانفراج النسبي يسود الصين منذ عام ٧٨ ، اي منذ سحق عصابة الاربعة ، وتولى القيادة الجديدة زمام السلطة . وهذا المناخ استفادت منه اطراف كثيرة ، منها اصحاب الاديان بوجه عام ، وهم الذين اصابهم الكثير من العنت والاضطهاد طوال سنوات الثورة الثقافية العشر .

لهذه الاسباب جميعها ـ قالوا لنا ـ فان هناك اتجاها لمجاملة مسلمي الصين . وللاسباب ذاتها فتحت لكم الابواب ، ووصلتم الى هنا .. في بكين .

## « مفاجأة » فنية

وقت وصولنا الى بكين ، كانت عاصمة مملكة الاسرار تتحدث باهتمام بالغ عن مسرحية باسم « حكايات على طريق الحرير » .

وقد كان طريق الحرير هو الجسر البري الرئيسي بين الصين والغرب ( يقصدون العرب والفرس ) حتى بداية القرن العاشر الميلادي . والمسرحية الراقصة تروي قصة تاجر فارسي اسمه ( امينوس ) قادم ببضاعته عبر الطريق ، ولكنه يوشك على الهلاك بسبب عاصفة رملية تداهمه اثناء رحلته فينقذه رسام صيني ( تشانج ) وابنته ( ينج نيانج ) غير ان قطاع الطرق يخطفون الابنة ، التي يعثر عليها الاب بعد سنوات ، وقد بيعت كرقيق واصبحت راقصة في فرقة مسرحية . ولكن الاب يعجز عن افتدائها بالمال ، فيلقاه التاجر الفارسي ، ويرد الجميل ، ويدفع له المبلغ المطلوب لتحرير الجميلة ( ينج ) . ولكن الوالي المحلي في المدينة التي يلتقي فيها تجار الشرق والغرب يدبر مكيدة لاستعادة الفتاة ، فيعهد بها والدها الى صديقه الفارسي امينوس ، وتهرب ينج مع التاجر الى بلاد فارس ، وتعقد مع اهلها صداقة وثيقة ، فتتعلم رقصاتهم وتعلمهم رقصاتها ، وتدور دورة الزمن ويذهب امينوس عبر طريق الحرير في مهمة الى بلاد الصين ، ويصحب معه ينج ، وما ان يعلم الوالي الشرير بقدومها ، حتى يحرض عصابة من رجاله على اختطافها ، ويتسرب النبأ للأب تشانج ، الذي يحاول تحذير التاجر وابنته ، لكنه يموت في هذه الظروف . وتنجو الفتاة من الاختطاف ، وتتوجه مباشرة الى سوق المدينة ، حيث تقف وسط الجميع منددة بالوالي ، وفاضحة تصرفاته . فيتم اعتقاله والعصابة التي تعاونه ، ويعود الهدوء الى المدينة ، وتتوثق في امان عرى الصداقة بين تجار الشرق والغرب .. ويسدل الستار وسط تصفيق شديد وحار .

ولان كل شيء محسوب في الصين . فان الرسالة التي تحملها مسرحية على طريق الحرير ، تحاول لفت الانظار الى الغرب ، العرب والفرس ، الموجودين في المسرحية بحجم متكافيء مع الحضور الصيني . بندية تنطلق من الرغبة في تعميق قيمة الصداقة والانفتاح على الآخرين في المرحلة الراهنة . فالصيني الفنان ، والفارسي التاجر ، يواجهان الشر متكاتفين . والابنة تتعلم الرقص الفارسي ، وتعلم الفرس الرقص الصيني ، في « تعاون فني » ظاهر . وعندما ينتصرون على الوالي الشرير و « عصابته » فان الجميع ينعم بالسلام الامان .

ان التاريخ البعيد هو محور الفيلم والمسرحية . التي لا تقدم معلومات جديدة ، وان كانا يعكسان بوضوح روحا جديدة في المعالجة . ان الضوء الاخضر لا يكتشف الطريق للعابر ، ولكنه يسمح له فقط بالمرور وتجاوز خط الوقوف . وفي بلد شديد الانضباط والاستلهام من السلطة سواء كان على رأسها ابن السماء ام رئيس الحزب ـ فان للاشارات الخضراء اهمية قصوى عند الناس . انها تعني بجلاء ان الحظر غير قائم ، وأنه لا مانع من التقدم في هذا الاتجاه .

ولحسن حظنا اننا وصلنا الى بكين ، والاشارات الخضراء مضاءة على طريقنا .

## هؤلاء العرب : تاشيش

كانت نقطة الانطلاق من بداية الطريق . اعني منذ وصل الاسلام الى الصين ، وتمركز في الاطراف بعيدا عن القلب ، الامر الذي يطرح الف سؤال وسؤال ، حول رحلة الاسلام الى هذه البلاد ، مساراتها ومنعطفاتها ، ودروبها السالكة او المسدودة .. وحول أمس المسلمين ويومهم ، وربما غدهم ايضا . وهو طريق لابد وان يمر بالتركيبة الفريدة لشعب الصين . وموقفه من الاديان عامة ، والاسلام خاصة ، بل وموقفه من الله سبحانه وتعالى بوجه اخص .

لقد قضيت شهرا في الصين ، احاول الاجابة على هذه الاسئلة ، فيما يمكن اعتباره جهدا استهدف في النهاية قراءة بعض صفحات ذلك الملف الموجود المفقود .

ولا اظنني بحاجة الى شرح ما واجهته طوال رحلة التنقيب في صفحات ذلك الملف . اذ يكفي ان اذكر بان رحلة الابحار هذه كانت في الصين ، في مملكة الاسرار ، وبلاد اعمق خلق الله ، واشدهم ارتيابا في الغرباء .

لقد اقتضى الامر رجوعا لابد منه الى العديد من الابحاث الصينية ، المنشورة وغير المنشورة ، والى محفوظات مكتبة بكين الضخمة ، ومتاحف المدن الرئيسية العامرة بآثار الماضي البعيد والقريب . كما اقتضى ان اجري حوارات طويلة مع بعض الخبراء والمتخصصين والعارفين بأحوال المسلمين ، وذلك غير شيوخ المسلمين وشبابهم .

وسمح لنا بأن نقوم بجولة في بعض المناطق الاسلامية ، والمراكز الهامة وثيقة الصلة برحلة الاسلام في الصين . من بكين ذهبنا الى اورموش عاصمة مقاطعة

رسوم يرجع تاريخها الى عهد اسرة يوان ، تسجل مشاهدة حياة القوافل التجارية التي نشطت في تلك الفترة بين الصين والمسلمين العرب والفرس ، حاملة الحرير والعطور والاخشاب والادوية بين الشرق والغرب . ( الى اليمين أسفل ) والصور الثلاث لمشاهد من المسرحية الراقصة « حكايات على طريق الحرير » التي تسجل صفحة من تاريخ علاقات الصين التجارية مع العالم الخارجي ، والذي تقوم بدور البطولة فيه الفتاة ينج ينانج التي عاشت فيما بين بلاد الصين وبلاد الفرس وكانت احد رموز الصلات التي نمت بين هذين العالمين .

سينكيانج ذات الطابع الاسلامي ، ثم الى توربان المدينة الثانية في المقاطعة . ومن هناك الى شيان العاصمة القديمة وآخر نقطة في طريق الحرير القادم من بلاد العرب والفرس . ومنها الى شنغهاي المدينة الثانية في الصين ، ثم الى كانتون ، اول ما طرقه العرب القادمون عبر البحر من مدن الصين . وهي رحلة امتدت من الغرب الى الجنوب ، وتراوحت بين نفس الربيع والحر الخانق والبرد الشديد ، لمسافة تجاوزت ٢٠ الف كيلومتر ، طرنا خلالها حوالي ٣٠ ساعة ، بطائرات « الميج » الروسية ، التي تستخدم في النقل المدني الداخلي ، بعلاماتها وكتاباتها الروسية ، الى الآن .

ومع ذلك ، فان الباحث في اعماق الصين ، يشعر بعد ان يقوم بجولته فيها ، مهما طالت ، بأن ما يجهله اكثر بكثير مما يعلمه ، وان ما خفي اضعاف اضعاف ما ظهر ، وان غاية ما حصله انه اغترف غرفة من بحر الحقيقة ، وغرق في بحر الابتسام !

## علاقات قبل الاسلام

ان الذين قالوا عن الصين انها « جنة المؤرخين » لم يبالغوا في اطلاق هذا الوصف على الاطلاق . بل هم صادقون مائة بالمائة . ان سجلاتهم تروي بتفصيل مذهل احاديث مفصلة عن تاريخ الصين منذ عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ( يشكك ول ديورانت في اقوالهم السابقة على القرن الثامن قبل الميلاد ويؤمن على ما بعد ذلك ) . ذلك ان بلاط الامبراطور ، ابن السماء ، كان يضم مؤرخين رسميين يسجلون كل ما يقع من احداث في البلاط ، هو تاريخ الامبراطور صحيح ، ولكن ينبغي الا ننسى ان الامبراطور كان كل شيء .

فقط هناك مشكلة ومحظور في قراءة هذه السجلات . فالجهل باللغة الصينية عقبة تحول دول الاستفادة الجيدة من تلك السجلات ، وهو ما يخفف منه ان بعض هذه السجلات ، خصوصا في الفترات الهامة من تاريخ الصين ، قد ترجم الى الانجليزية . فضلا عن جهود المترجمين المحليين التي تساعد في تيسير مهمة الباحث . وربما كان جدار اللغة هذا ، احد العوامل التي اسهمت في التقليل من الكتابة العلمية الموثقة عن الصين ، سواء تعلق الامر بعلاقاتهم بالعرب او المسلمين ، او بغيرهم .

اما المحظور فان تلك السجلات ، لانها تاريخ حكومي ، فقد كانت تعرض الوقائع وتصوغها بمنظور صيني رسمي للغاية . فقد كانوا يعتبرون انفسهم في الازمنة القديمة جنسا ارقى من الآخرين ـ كما سنرى فيما بعد ـ وكل تعامل خارجي لهم ، كان يصاغ على اعتبار انه احدى صور التبعية والخضوع ، والتماس العفو احيانا !.. حتى ان خان الصين الاكبر عندما استقبل الرحالة البندقي الشهير ماركوبولو وأباه وعمه ، في عهد قريب نسبيا ( عام ١٢٩٥ م ) ، فان السجلات الصينية تذكر ان الخان استقبلهم « باعتبارهم رسلا اذلاء من الغرب الناشيء » !

وبهذا المنهج ، فان السجلات الصينية تتجاهل بشكل عام الاحداث التي قد تقلل من شأن الامبراطور ، او تضعه في موضع ندية مع الاخرين ، وهو ما لا يليق بابن السماء على اي حال .

ان بلاد العرب في السجلات الصينية القديمة هي تلك البلاد « الواقعة غربي ايران » .

والمسلمون يذكرون في تلك السجلات باسم « تاشيش » ، اي التاجيك ، وهذه الكلمة الاخيرة تطوير فارسي للكلمة الفارسية تازي ، التي اطلقت على « عرب قبيلة طي » . وكان بعض الفرس يعتبر ان قبيلة « طي » تمثل العالم العربي . فصارت كلمة « تازي » وتاجيك من بعد ، تطلق على كل عربي او مسلم ، ثم نطقت الكلمة عند الصينيين « تاشيش » .

وتميز السجلات الصينية بين الامويين والعباسيين ، فهي تطلق على الامويين ( بين تاشي ) اي العرب ذوي الملابس البيضاء . بينما اطلقوا على العباسيين اسم ( خي تاشي ) ، اي ( العرب ذوي الملابس السوداء ) ، اشارة الى اللون الاسود الذي اتخذه العباسيون شعارا لهم .

اما كلمة ( هوى ) فتطلق على المسلمين من اصول عربية وفارسية ، ويقال ان اول مجموعة من هؤلاء المسلمين وصلت الى الصين واستقرت الى جوار قبيلة باسم ( هوى شوى ) ، وكانوا يعرفون بهذه القبيلة ، حتى انتقل الاسم اليهم ، وارتبط بهم ، واصبح المسلمون في جنوب ووسط الصين يميزون بانهم « هويين » ، وينتمون الى قومية باسم « هوى » .

وامير المؤمنين يشار اليه في سجلاتهم باسم : هنجي مومويي .

وهارون الرشيد يعرف باسم الون ( الراء تنطق لاما في الصينية ) .. وابراهيم هو بوهيم .

ذلك في القاموس القديم للغة التعبير ، ولكن القاموس الجديد له شأن آخر .

في معهد اللغات الاجنبية ببكين ، يدرسون كتابا

عن تاريخ العرب في العصور الوسطى مؤلفه الاستاذ عبد الرحمن ناجونج ، الذي نال العالمية من الازهر الشريف في عام ١٩٣٧ ، وتخصص في التاريخ الاسلامي ، ويعمل من سنة ١٩٤٠ والى الآن مدرسا للتاريخ ، غاية ما هناك انه عاد سنة ٤٠ مدرسا للغة العربية في مقاطعة يونان ، وصار الان مدرسا للتاريخ في اكاديمية العلوم الصينية . وهو يقود الفريق الذي يترجم مؤلفات احمد امين ، الذي كان أستاذه في كلية دار العلوم بالقاهرة في منتصف الثلاثينات .

لقد كان الاستاذ ناجونج واحدا من خمسة ، هم اول بعثة في العصر الحديث تسافر من الصين للدراسة في الازهر ، على نفقة احدى الجمعيات الاسلامية الاهلية في مقاطعة يونان . وقد مات ثلاثة من الخمسة ، وبقي اثنان ، احدهما لا يزال مدرسا مغمورا في يونان ، وهو لا يزال يحاول ان يشق طريقه في بكين !

في كتابه يقول المؤرخ الصيني المسلم ، ان علاقات الصين بالعرب سابقة على ظهور الاسلام . وان الامبراطور وودي ، بعث في سنة ١٣٩ قبل الميلاد ، تشانج تشين سفيرا له الى الممالك في آسيا الوسطى . لاقامة روابط ودية معها . وزار في سفرته هذه ٣٦ مملكة صغيرة في المنطقة ، شملت بلاد الفرس والعرب .

وبعده زار فارس والعراق مبعوث آخر هو جان ينج ، بامر من القائد الصيني بان جاو . ولما بلغ سواحل الخليج « الفارسي » لم يتمكن من الابحار الى الغرب ( اي الى ابعد من العراق ) بسبب عدم وجود وسيلة انتقال ولشدة العواصف والامواج ، فعاد باخبار وافرة عن العالم العربي .

وقد فتحت هاتان الرحلتان الطريق البري للسفر بين الصين والبلاد العربية غربي آسيا ، ( واضح انهما سافرا بالبر ) ، وكانت النتيجة ان فتح باب الاتصال بين الصين والعراق وسوريا عبر ايران .

اما العرب ـ يضيف عبد الرحمن ناجونج ـ فقد كانوا على معرفة قديمة ايضا بالصين ، والدليل على ذلك هو الحديث المروي عن النبي ( ص ) : اطلبوا العلم ولو في الصين .

وعندما قلت له ان هذا الحديث مشكوك فيه ، وان ابن قيم الجوزية اورده ضمن الاحاديث الموضوعة ، وان الامامين الالباني والشوكاني اعتبراه موضوعا او ضعيفا . عندئذ كان رده ان ذلك لا يغير من حقيقة ان الصين كانت معروفة للعرب في فجر الاسلام . فاذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لم يذكر الحديث ، فان الذين وضعوه في ذلك الوقت المبكر لاشك يعرفون ان هناك بلدا نائيا اسمه الصين .

## مبعوث من خليفة المسلمين

على ان تاريخ اسرة تانج الملكية ، التي حكمت الصين حوالي ثلاثة قرون ( ٦١٨ ـ ٩٠٧ م ) يتضمن فصلا يعرف باسم ( سجل تاشيه ) او سجل العرب ، الذي يصف جغرافية ومنتجات العالم العربي . وتتفق المصادر الصينية والعربية على ان اول اتصال رسمي بين المسلمين والصينيين ، كان في فترة حكم اسرة تانج ، وفي عهد الامبراطور كاوتسنج عام ٦٥١ ميلادية ( ٣٠ ـ ٣١ هجرية ) .

وفي السجلات الصينية انه في ٢٥ اغسطس ( آب ) سنة ٦٥١ وصل الى تشانجان ( شيآن ) اليوم وعاصمة الصين آنذاك اول مندوب عربي ، مبعوثا من الخليفة عثمان بن عفان ، حيث التقى وامبراطور الصين .

وفي تاريخ اسرة تانج القديمة « ان الوفد القادم من ارض بعيدة جدا » ، نقل الى الامبراطور انباء جزيرة العرب ، التي شهدت ظهور نبي بعثه الله من بين العرب ، داعيا الى التوحيد « ..... و ان ملكهم يدعى هنجي موموبي ( اي امير المؤمنين ) وان حكومتهم اسست منذ اربع وعشرين سنة . وقد مضى منهم ثلاثة ملوك حتى الان » .

ولكن المصادر الصينية لا تذكر الاسباب التي دعت خليفة المسلمين عثمان بن عفان الى ارسال وفده للقاء الامبراطور كعادتها في ابراز « ابن السماء » باعتباره « القبلة » التي يتوجه اليها الآخرون بالسؤال والتحية . لكن حقيقة الامر غير ذلك ، فالمصادر العربية والغربية تقول ان ملك الصين هو الذي بادر بارسال مبعوثيه الى خليفة المسلمين . وقد مر بنا ان الطريق كانت سالكة منذ قبل الميلاد فيما بين الصين وبلاد العرب .

وحقيقة القصة انه بعد هزيمة الفرس والروم على ايدي المسلمين ، فان كليهما ارسل الى ملك الصين يستغيث به ، ويهول في خطر قوة المسلمين الصاعدة ، مدعيا انهم سوف يسيطرون على طريق التجارة ـ الذي يهم الصين ـ ويذكر ان يزدجرد ، ملك الفرس ، اوفد بعد هزيمته في معركة نهاوند مبعوثه الى ملك الصين للاستعانة به على المسلمين ، ولكنه اعتذر عن مد يد المساعدة له ، ثم ارسل مبعوثيه الى خليفة المسلمين

« قبة مسجد » تشي جان واسي » ـ بيت الله العلي ـ في مدينة شيآن ـ وقد صممت على الطراز الصيني ، بحيث جاءت مغايرة تماما للاشكال المألوفة لقباب المساجد ، وهو ما حرص عليه المسلمون هناك في الازمنة القديمة ، حرصا على عدم استثارة الصينيين ( فوق ) ـ ثم صورة لنحت في متحف مدينة كانتون ، مستوحى من القوافل التجارية القادمة بالجمال على طريق الحرير ( تحت ) والى ( اليسار ) صورة لجزء من سور الصين العظيم في ضواحي بكين العاصمة ، وهو السور الذي يمتد لمسافة اربعة آلاف كيلومتر ، وانتهت وظيفته الدفاعية ، حتى صار يؤدي الان وظيفة سياحية فقط !

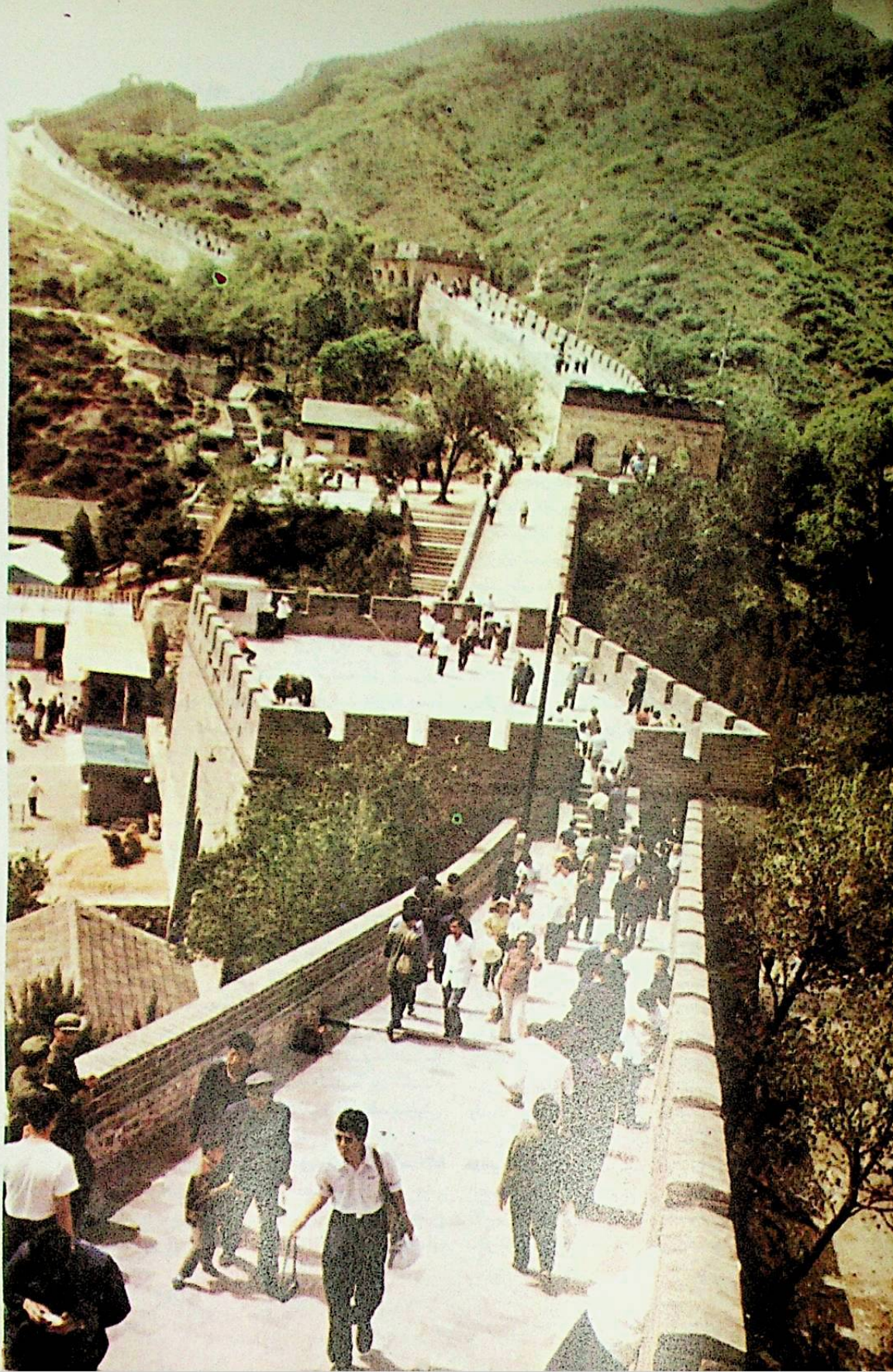

للوقوف على حقيقة هذه القوة الجديدة والصاعدة في الجزيرة العربية .. الامر الذي دعا عثمان بن عفان الى ان يوفد من جانبه ايضا مبعوثين الى ملك الصين ردا على تلك المبادرة .

وتذكر المصادر الصينية ان المبعوثين العرب وفدوا الى الصين طوال حكم اسرة تانج ، ٣٧ مرة . وقد دام حكم هذه الاسرة حوالي ثلاثة قرون ، وهي فترة تغطي عهد الخليفتين عثمان وعلي ، والعصرين الاموي ، والعباسي .

وابرز السفارات العربية في تلك الفترة ، هي بغير شك تلك التي اوفدها القائد العربي العظيم قتيبة بن مسلم الباهلي فاتح اواسط آسيا ، الذي وصلت قواته الى كاشغر ، على حدود الصين وقتئذ واستولت عليها الصين فيما بعد ( وهي جزء منها الان ) ، وكان ذلك في عام ٩٦ هجرية ، اي في اواخر عهد الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك .

وقد اغفلت المصادر الصينية ايضا ذكر هذه الواقعة ، لنفس السبب الذي من اجله اسقطت سفارة ملك الصين الى عثمان بن عفان . ودواعي الاغفال هنا اشد ، لان الموقف اكثر حرجا . فثمة قائد عربي زاحف بجحافله يدك الحصون وتعسكر قواته على ابواب الصين ، ويسترضيه ملك الصين بما يشبه الجزية دفعها اليه : وهو ما يفصل في ذكره الطبري في الأمم والملوك ج ٣٥ ، وابن الاثير في ( الكامل ج ٥ ) .

## الامبراطور يستغيث بالمنصور

وثمة واقعة اخرى ليست اقل اهمية تسقطها السجلات الصينية ، ولا تأتي لها على ذكر ، لان الامبراطور هنا ليس مهددا من جانب قائد عربي ، ولكنه مستغيث بخليفة المسلمين .

ففي منتصف القرن الثامن الميلادي ، تعرضت الامبراطورية لتمرد كبير قاده الثائر ( شي جولي ) مما اضطر امبراطور الصين هس وان تسنج الى التنازل عن عرشه لابنه « سو » ، الذي استغاث بالخليفة العباسي المنصور ، عالما بالصلات الوثيقة المتنامية بين الحكام المسلمين والبلاط الصيني ، وبالقوة المتعاظمة لجيش المسلمين .

لم يتردد ابو جعفر المنصور في الاستجابة لاستغاثة ابن الامبراطور ، وارسل اليه بعضا من وحدات جيش المسلمين ، قيل انهم حوالي ٤ آلاف رجل ، نجح بمساعدتهم في استرجاع عرشه ، الامر الذي ادى الى تعميق الصلات بين العباسيين وامبراطور الصين من ناحية ، وترتب عليه ايضا ان استبقى الامبراطور هؤلاء الجنود ، فتزوجوا من صينيات ، واسهموا ـ من ناحية ثانية ـ في غرس بذور سلالة الصينيين العرب المسلمين . ويقال الآن ان مسلمي جنوب ووسط الصين هم احفاد جنود قتيبة بن مسلم فاتح كشغر ، وهذه المجموعة من الجنود الذين اوفدهم المنصور لانقاذ عرش الامبراطور .

وتشير سجلات اسرة تانج ان الدولة كانت تدفع لاسر الجنود المسلمين الذين اوفدهم المسلمون واستبقاهم الامبراطور ، خمسمائة الف اوقية من الفضة كل سنة ، وهو عطاء فرضته الدولة على نفسها مكافأة لهم على نجدتهم للعاهل سوتسنج .

ولم يكن الجنود هم كل الذين وفدوا الى بلاد الصين من العالم العربي في ذلك الحين . لان ثمة اشارات عديدة في المراجع التاريخية الى ان بعض الشيعة العرب الهاربين من خراسان ، بسبب بطش الحكم الاموي ، قد وصلوا الى بلاد الصين قبل منتصف القرن الثاني الهجري .

ويبدو ان المسلمين كان لهم وجود مؤثر في كانتون خلال تلك الفترة ، حتى ان المؤرخ الفرنسي ( كورديب ) يذكر في كتابه « مسلمو يونان » ان التجار المسلمين بالمدينة ثاروا على الحكومة سنة ٧٥٨ م ، بسبب ضريبة ارهقتهم ، « فنهبوا البلدة واحرقوها وخرجوا » ـ على حد قوله ـ ولكنهم رجعوا بعد ذلك لان العلاقات التجارية لم تنقطع بين سيراف وكانتون .

وقد ظل مؤشر العلاقات العربية الصينية في تصاعد بعد ذلك ..

فبعد فترة من ذهاب اسرة تانج ، تولت السلطة اسرة سونج ( ٩٦٧ ـ ١١٦٨ م ) التي تشير سجلاتها الى ان ٤٩ بعثة عربية وفدت من حكام المسلمين الى بلاط الامبراطور خلال عهدها الذي استمر قرنين من الزمان .

ويسجل تاريخ تاشي في عهد سونج « انه اوفد من بلاد تاشي ١٧ سفارة الى اسرة سونج في الفترة ما بين سني ٩٦٨ ـ ١٠٦٣ م ، حيث استقبلت استقبالا حارا ، ولقيت احتراما بالغا من قبل حكومة سونج . وقد منح السفير ليكوم ( يعتقد انه عبد الرحيم ) لقب ( القائد ) ، وتلك القاب لم تكن تعطي لغير الصينيين ، وحتى الصينيين ما كانوا ليحصلوا على اي لقب رفيع او وظيفة الا بعد ان يجتازوا امتحانات شاقة وعسيرة . كذلك نال سائر المبعوثين العرب ألقابا تليق بهم ، وسمح لهم ان

يتجولوا في عاصمة سونج ( البقاء في العاصمة والتجول فيها كانا محظورين على الاجانب ) وكانت العاصمة وقتذاك هي مدينة بيانليانج ( مدينة كايفنج ، مقاطعة خنان حاليا ) .

وبسبب تنامي الرواج التجاري بين الصين وبين العرب والفرس ، اتخذت اسرة سونج عدة اجراءات لتوسيع نطاق التجارة الخارجية ، فانشأت دائرة للتجارة والملاحة في كانتون او خانفو ، وتسي تون ( التي ذكرها ابن بطوطة على انها مدينة الزيتون ، وتسمى الآن تشيوا نتشو ) . كما انشئت دوائر مماثلة في عدد آخر من المدن التجارية الساحلية والحدودية .

وشرعت حكومة سونج في توثيق العلاقات مع التجار العرب ، فاوفدت مبعوثين محملين بالهدايا الى بلدان فارس والعرب ، الامر الذي شجع كثيرين من هؤلاء التجار على القدوم الى الصين وتذكر السجلات الصينية ان التاجر العربي ابو ياطل ( ربما كان أبو نائل ) دعي للقاء الامبراطور سونج ، الذي « خلع عليه حللا وقلنسوة متوجة ، وحزاما مرصعا ، واثاثا وما الى ذلك . كما سمح له بان يسكن في العاصمة للاستجمام عدة شهور ، وذلك امتياز خاص جدا » .

وتشجيعا للتجارة التي كانت مقصورة على المسلمين في ذلك الحين ، سنت حكومة سونج قانونا يعاقب كل من يسيء الى التجار الاجانب ، ويقضي بعزل الموظفين الصينيين المختصين من مناصبهم اذا ما صدرت عنهم هذه الاساءة . كما يقضي بمحاكمة كل من يشارك في خطف تاجر اجنبي او انتهاك حرمته .

وكانت اكبر تجمعات العرب المسلمين طوال عهد اسرة سونج في كانتون ( خانفو ) ، وتسي تون ( حديقة الزيتون ـ تشيوانتشو ) ، حتى بلغت اعدادهم ١٠ آلاف عربي في كل من هذين الميناءين خلال القرن العاشر . وتقول المصادر الصينيه * ان الاثرياء العرب انفقوا الكثير من اجل تعمير تسي تون ، وان العربي ( ابو شوقي ) انتخب رئيسا لدائرة التجارة والملاحة ، وتولى مقاليد التجارة الخارجية طوال ٣٠ سنة .

## سفينة من بلاد العرب

والمكتشفات الاثرية في السنوات الاخيرة عززت فكرة وجود جسور اتصال قوية بين بلاد تاشي وبلاد الاسرار ، خصوصا في عهد الدولة العباسية .

ففي اغسطس من عام ١٩٧٤ عثر في قاع خليج تسي تون ، او تشيوان تشو الان . على سفينة خشبية بحالة جيدة ، يرجع تاريخها الى ما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وبدا واضحا لاول وهلة انها سفينة تجارية ، اذ كانت من النوع الكبير ، او الضخم بمعايير القرن الثاني عشر . اذ بلغ طولها ٢٤ مترا وعرضها ٩ امتار وربعا . وعثر في مقصورتها على بقايا خشب الصندل المعطر وعقاقير طبية ولبان وفلفل ، ودرع سلحفاة ، وبخور وعنبر . كما عثر في الجزء المطمور من من السفينة على لوحة خشبية كتب عليها اسم « على » ، ربما كان اسم صاحب السفينة ، وأحد التجار العرب الكبار .

وبعض محتويات السفينة من منتجات بلاد العرب ، الاعشاب الطبية واللبان ، الذى اشتهرت به مناطق عمان في ذلك الزمان . وبعضها مثل الصندل الاحمر ، واضح انه تم نقله من اماكن اخرى ـ سواحل افريقيا مثلا ـ لحساب التجار الصينيين ، غير ما كان ينقل عادة من سواحل فارس والهند .

ومنذ سنوات ايضا ، عثر في اطلال مدينه الفسطاط جنوبي القاهرة ، على الآلوف من اواني القيشاني الصيني . وثبت من الفحوص انها من منتجات محافظة يوبيا وبمقاطعة تشجيانج في اسرة سونج . ونقلت الى مصر على يد التجار العرب ، عبر الشام .

وتبين ايضا ان الخزف الصيني وصل الى مصر على عهد احمد بن طولون ـ حاكم مصر في منتصف القرن التاسع الميلادى . ثم قام المصريون بتقليده في عهد الدولة الفاطمية ( ٩٦٩ ـ ١١٧٠ م ) وبلغ هذا التقليد ذروته في عصر المماليك ( ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م ) .

وفي سامراء بالعراق ، عثر في الحفريات على اوان عربية صنعت على الطراز الصيني في العصر العباسي ، كما عثر على اعداد من خزف الصيني ، وردت الى سامراء مع السفراء الصينيين او من خلال التجار .

وعبر هذه الجسور ، التي كانت تنقل التجارة بين الشرق والغرب ، لم ينقل العرب الحرير والخزف والشاى فقط ، ولكنهم نقلوا معها ايضا صناعة الورق والبارود

---

* من بحث نشرته مجلة بناء الصين ( يونيو ٧٩ ) حول علاقات العرب والصين في عهد اسرة سونج ـ كتبه تشو شاو تشيوان .

مسلمو شيان في ساحة مسجدهم الكبير « تشي جان وامي » ، المصمم على الطراز الصيني ، وقد ملأوا المسجد من الداخل في يوم الجمعة ، ثم وقفت صفوفهم خارج المسجد في خشوع بالغ ، « الطاقية » البيضاء لازمة للصلاة ، وهي

تباع في مكتب الامام لمن يريد ، بينما اكثرهم لا يحفظون شيئا من القران وربما الفاتحة بالكاد ، لكنهم يقفون صامتين بين يدي الله .. يستمعون الى قراءة الامام ، ويفعلون مثلما يفعل قياما وركوعا وسجودا .

والابرة المغناطيسية الى بلاد العرب . وفي الكتابات الصينية ان اول مصنع للورق انشىء خارج الصين على ايدى العرب ، كان في بغداد عام ٧٩٤ م ، وان الطباعه دخلت بغداد في الفترة ذاتها ، ثم انتقلت صناعة الورق الى دمشق ثم القاهرة والاسكندرية ومنها الى صقلية ثم اسبانيا واوروبا ❊ .

وبالمقابل ، نقل العرب الى الصين علوم الطب والرياضيات والفلك . فنجحت الصين في زراعة الاعشاب الطبية الواردة من بلاد العرب . حتى عرفت اللغة الصينية بعض اسماء العقاقير الطبية المتداولة عند العرب ، والاحجار الكريمة ، مثل : روشيانج ( اللبان العربي ) ودواء مورياو من المر العربي ، وخلوصبا ( الحلبة ) ، ويابلو من جذور الداتوره ( من النباتات الطبية ) حتى ( التربة ) فانها تنطق بالصينية ( توربا ) ، ومن الاحجار الكريمة ياقو ( الياقوت ) وزومولا ( الزمرد ) .

ويرى بعض الباحثين الصينيين ان « خيال الظل » منقول الى البلاد العربية عن الصينيين ، كما ان لعبة « السيجه » المعروفة في بلادنا ، دخلت الى الصين على ايدى العرب .

وتتفق اكثر الكتابات ـ عند الصينيين والعرب والاجانب ـ على ان الوجود الاسلامي حتى اسرة سونج كان محصورا في الوافدين من بلاد العرب ، سواء الذين وفدوا للتجارة ، وسكنوا في احياء خاصة بهم تناثرت في الموانيء البحرية والبرية . او اولئك الذين استوطنوا مثل بقايا جيش قتيبة او الجيش الذى اوفده المنصور لمساعدة وانقاذ عرش امبراطور الصين . ولم تشر هذه الكتابات الى صينيين دخلوا الاسلام عن قناعة واختيار ، وتلك ملاحظة هامة لها تفسيرها الذى سوف نتوقف عنده فيما بعد .

## عندما حكم المغول

على ان ثمة اجماعا بين السجلات الصينية والكتابات العربية والاجنبية على ان الاسلام حقق قفزة اوسع في الصين في ظل عصر مملكة يوان المغولية ( ١٢١٥ ـ ١٣٦٨ م ) التى تربعت على عرش الصين بعدما اطاح قوبلاى خان ، حفيد جنكيز خان ، بحكومة اسرة سونج .

وهناك تفسيران لهذه الظاهرة ، احدهما ان قفزة الاسلام في الصين هذه انما هي تعبير عن اتساع حجم المصالح التجارية بين بلاد العرب والصين ، اى انها كانت تعكس مدى تنامى العلاقات الاقتصادية بين الجانبين .

والتفسير الثاني ان المغول كانوا في الاساس بغير دين ، او قل ان دينهم كان يقوم على عبادة نجمهم السعيد ، مع السعى الذى لايكل ولا يمل الى استنزاله من السماء ، وذلك على عكس الاسر التي حكمت الصين قبلهم ، وكانت تدين بالبوذية وتتعصب لها رافعة شعار « لادين غريب في الصين » . وبسبب موقف المغول من قضية الدين ، فانهم لم يترددوا في ان يتساهلوا مع حملة الاديان الاخرى . ولانهم شعب وافد من الخارج ، بالغزو ، فقد كان يهمهم احداث قدر من توازن القوى داخل الصين . عن طريق فتح الباب لظهور قوى جديدة على سطح المجتمع ، مما يدعمهم ويثبت اقدامهم ، وربما يضعف ، من ناحيه اخرى ، القوى الصينية التي تتحالف ضدهم .

واذا اضفنا الى ذلك ان الترك كانوا قد دخلوا الاسلام في تلك الفترة ، وهم المعروفون بأنهم مقاتلون أشداء ، فان فتح ابواب الصين لهم قد يحقق هدف مساندة الحكم المغولى ، وهو ما اقدم عليه المغول فعلا .

ورغم ان كلا من الرأيين له وجاهته ، فانه من المقبول ايضا ان يكون اجتماعهما معا قد ساهم في احداث هذا التغيير الذى شهدته الصين في ظل اسرة « يوان » . اعنى ان يكون النمو الطبيعي للمصالح العربية الصينية ، قد توافق مع هذه المصلحة التي ربما ارتآها المغول في فتح ابواب الصين للمسلمين ، مما افرز تلك النتيجه التي نحن بصددها .

وهناك عامل آخر ساهم في تكثيف عدد المسلمين بالصين خلال فترة الحكم المغولى ، يتمثل في حقيقة ان المغول الذين استولوا على عرش الصين . كانوا هم الذين اجتاحوا اواسط آسيا ، ووصلوا الى بغداد ودمشق ، مرورا ببلاد ما وراء النهر وخراسان وبلاد فارس ، وكلها ديار للاسلام في ذلك الزمان . وكان المغول يجندون المسلمين في صفوفهم ـ من عرب وفرس واتراك ـ فضلا عن الزراع والصناع الذين اكرهوهم على الانتقال معهم ، وكان بعض هؤلاء يجبر على الذهاب الى الصين

---

❊ تاريخ العرب في العصور الوسطى ـ عبد الرحمن ناجونج .

مع المغول ، حيث بقوا ضمن جيوشهم ، واستوطنوا هناك بمضي الوقت .

وابرز اباطرة المغول الذين يرتبط اسمهم بالمد الاسلامي في الصين هو قوبلان خان ( ١٢١٥ ـ ١٢٩٤م ) ، الذي انقلب على المسلمين في بادىء الامر ، بسبب وشايات قيل ان مصدرها ابن اخيه ( اباقا ) ـ وهو ابن هولاكو الذي نعرف اسمه جيدا في العالم العربي ـ وكان اباقا متزوجا من مسيحية ، أوغرت صدره ضد المسلمين ، فمضى بدوره يحذر عمه قوبلاى خان منهم ويحرضه ضدهم . فجردهم من حقوقهم وامتيازاتهم القديمة .

غير ان قوبلاى خان اكتشف بعد سبع سنوات من ممارسته لهذا الاضطهاد ، ان المسلمين خرجوا تباعا من الصين الى جزائر الهند الشرقية ، وامتنعوا عن التجارة مع الصين . وتوجهت مراكبهم من جزر الهند الشرقية الى العراق ومصر . الامر الذي ادى الى نقص واضح في واردات حكومته ، وهو ما اضطره الى التراجع عن قراراته واحدا تلو الاخر . وفي محاولة لاسترضائهم ، فانه بنى لهم مسجدا في ( خان بالق ) قيل انه كان يسع مائة الف .

وتذكر دائرة معارف القرن العشرين ان قوبلاى خان عين وزيرا مسلما في حكومته ، اسمه احمد البناكتي ( اهاما بالصينية ) .

من ناحية اخرى فان بعض العرب الذين استقروا تلقوا التعليم الصيني ، واجتازوا الامتحان الرسمي للخدمة بالحكومة ، وأصبحوا من كبار الموظفين . ومنهم ( بوشاوتشع ) الذي عين قاضيا ، ونظم ديوانا من الشعر الكلاسيكي ، اما اخوه ( بوشاوكنج ) فكان مساعدا لرئيس وزراء قوبلاى خان ويذكر الاستاذ عبد الرحمن ناجوج في كتابه عن تاريخ العرب هذين الاسمين بالنطق الصيني ، ولكنه لم يشر الى الاسم العربي لكل منهما للاسف .

ويتضمن سجل طبقة الاعيان الملكي لأسرة يوان اسماء اكثر من مائة شخص من المسلمين بلغوا رتبا رفيعة ، استحقوا معها ان يضموا الى السجل . وتشير وثائق الاسرة انه في سنة واحدة ( ١٣٣٣ ) حصل عشرة من الشبان المسلمين على الشهادة العلمية الملكية العليا ، بعدما اجتازوا امتحانها الشاق .

ومن المسلمين الذين برزوا في الحياة الصينية خلال عهد اسرة يوان جمال الدين الفلكي ، الذي يرجع اليه الفضل في وضع تقويم جديد ، واختراع سبعة آلاف فلكية ، اهداها الى الامبراطور ، لاتزال تحمل اسماء عربية الى الآن هي : ذات حلق ، وذات سموت ، ولخمه معوج ولخمه مستوى ، وكرة السماء ، وكرة الارض ، والاسطرلاب .

ومنهم ايضا سعد الله الشاعر الشهير ، الذي يطلق عليه الصينيون اسم تيان شي . او تشي تشاى ، وقد تقدم في سلك الوظيفة حتى نال ـ بعد الامتحان ـ احدى درجاتها الرفيعة التي تعرف باسم ( جينشى ) ، مما اتاح له فرصة تولى مناصب الدولة العليا ، حتى اصبح مسئولا عن الاسكان والبلديات في مدينة جينكو ( تشنجيانج الآن ) وتشير اليه الكتابات الصينية باعتباره الرجل الذي « نظم الاسواق وحدد المقاييس والمكاييل والموازين ، حتى استقامت امور البيع والشراء وشهدت الاسواق النظام التام » .

## السيد الأجل

لكن « السيد الاجل » هو الذي طبقت شهرته الافاق بين المسلمين الذين اشتهروا في عصر تلك الاسرة المغولية .

والسيد الاجل ، هو اسم شهرة ، اكتسبه الرجل لشدة ما عرف به من النزاهة والكفاءة . واسمه الحقيقي هو عمر شمس الدين ، الذي يقال انه كان من اهل بخارى ، ووفد الى الصين ، حتى برز نجمه ، فعينه قوبلاى خان في ادارة بيت مال الامبراطورية . ثم عينه حاكما على ولاية يونان ، بعد فتحها وضمها الى الصين . ومات في سنة ١٢٧٠ ، وعرف في السجلات ـ يذكر توماس ارنولد ـ بانه « كان حاكما فطنا عادلا ، بنى في يونان معابد لاتباع كنفوشيوس ، بقدر مابنى فيها من المساجد » .

وقد اطلق علية الامبراطور اسما صينيا هو سای تينتشعی ( ترجمه حرفية للسيد الاجل ) ثم خلع عليه لقب التشريف ( امير حسين يانج ) . وبعد وفاته ترك خمسة ابناء وتسعة عشر حفيدا برز منهم ابنه ناصر الدين الذي كان وزيرا وحاكما لمقاطعة شانسى ، وعين حاكما ليونان ، حيث توفر بها سنة ١٢٩٢ م . وخلفه اخوه حسين . وكان الاخوة الاخرون يتولون مناصب رفيعة في الدولة ، وكذلك كان شأن احفاده . ومن احفاده الأبعدين ـ تسجل دائرة المعارف الاسلامية ـ ماتشو او ماجو ( لعله ماجد ) ـ ( ١٦٣٠ ـ ١٧١٠م ) ، وكان فقيها

عالما ، نشر مصنفه المشهور ( ابرة الاسلام المغناطيسية ) .

ويذكر توماس ارنولد ان ذرية السيد الاجل لعبت دورا هاما في توطيد دعائم الاسلام في الصين ، وان احد احفاده حصل من الامبراطور سنة ١٣٣٥ م على الاعتراف بان الاسلام هو دين الله الحق الخالص ) ، وهو اعتراف ظل الاسلام يحمله الى يومنا هذا . واذن الامبراطور سنة ١٤٢٠ لشخص آخر من سلالة السيد الاجل بان يبنى عدة مساجد في العاصمتين نانكين ، وسنيانغو .

يتوجه الى الله داعيا بالصينية .. ولايعرف من العربية الا لااله الا الله .

## عندما ذهب ابن بطوطة

وقد تصادف ان قام الرحالة العربي الاشهر ابن بطوطة ، برحلة الى بلاد الصين في اواخر عهد اسرة يوان ، في القرن الثامن الهجرى ( الرابع عشر الميلادى ـ سنة ١٣٤٢م ) ، ونقل في كتاباته صورة لها دلالتها ، ترسم الى حد كبير معالم الوجود الاسلامى في الصين خلال تلك الحقبة .

فقد كان ابن بطوطة قد استقر به المقام لبعض الوقت في دهلى ، كما كان ينطقها العرب القدامى ، حاضرة الهند . حيث عمل قاضيا ، وصار قريبا من سلطانها تغلق آنذاك . وذات يوم « بعث إليه السلطان خيلا مسرجة ، وجوارى ، وغلمانا ، وثيابا ونفقة » ودعاه للقائه قائلا انما بعثت اليك لتتوجه عنى رسولا الى ملك الصين فاني اعلم حبك في الاسفار والجولان .

وهكذا صدر اليه التكليف بالسفر ، الذي يروى قصته قائلا :

وكان ملك الصين قد بعث الى السلطان مائة مملوك وجارية وخمسمائة ثوب من الكمخاء منها مائة من التي تصنع بمدينة الزيتون ، ومائة من التي تصنع بمدينة الخنساء ، وخمسة امنان من المسك ، وخمسة اثواب مرصعة بالجوهر ، وخمسة من التراكش مزركشة ، وخمسة سيوف ، وطلب من السلطان ان يأذن له في بناء بيت للاصنام ( يقصد معبد بوذى ) في موضع يعرف بسمهل ، واليه يحج اهل الصين ، وتغلب عليه جيش الاسلام بالهند فخربوا المعبد وسلبوه .

فلما وصلت هذه الهدية الى السلطان كتب اليه بان هذا المطلب لايجوز في ملة الاسلام إسعافه ، ولايباح بناء كنيسة بارض المسلمين الا لمن يعطي الجزية ، فان رضيت باعطائها ابحنا لك بناءه ، والسلام على من اتبع الهدى .

« وكافأه على هديته بخير منها » هكذا يقول ابن بطوطة ، وهو يسجل قائمة الهدايا الكثيرة والثمينة التي بعث بها سلطان الهند الى ملك الصين .

بعد سلسلة من المغامرات في طريق البحر وصل ابن بطوطة ـ اول ماوصل ـ الى تسى تون ، أوتشوانتشو الان ، التي نطق اسمها الرحالة العربي على انها مدينة الزيتون . « ويوم وصولي رأيت الامير الذي توجه الى الهند رسولا بالهديه ( الى السلطان تغلق ) ... وجاء الى

احدى البوابات الداخلية لمسجد سيآن ، وقد حفرت في الجزء العلوى من الجدار عبارة « المساجد بيوت المتقين »
على درج المسلم وقف خطيب المسجد الشيخ محمد يونس « بثياب الشغل » يتحدث مع واحد من المسلمين .

قاضي المسلمين تاج الدين الاردويلي ، وهو من الافاضل الكرماء ، وشيخ الاسلام كمال الدين عبد الله الاصفهاني ، وهو من الصلحاء . وجاء الى كبار التجار . فيهم شرف الدين التبريزي ، احد التجار الذين استدنت منهم حين قدومي على الهند واحسنهم معاملة ، حافظ للقرآن مكثر للتلاوة .

« وهؤلاء التجار ، سكناهم في بلاد الكفار ، اذا قدم عليهم المسلم فرحوا به اشد الفرح ، وقالوا : جاء من ارض الاسلام ، وله يعطون الزكوات ، فيعود غنيا كواحد منهم !

« وكان بها المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازروني ، له زاوية خارج المسجد ، واليه يدفع التجار النذور التي ينذرونها للشيخ ابي اسحق الكازروني ) » .

والى حين لقاء ملك الصين » او القان كما يذكره في كتابه ، فان ابن بطوطة قام بجولة في بعض مدن الصين الساحليه ، حيث وجد في كل مدينة من مدن الصين ( يقصد جنوب الصين الحاليه ) مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم .

ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعيات ( صلاة الجمعة ) وسواها ، وهم معظمون ومحترمون .. لكنه عندما يصل الى العاصمة « خان بالق » ، للقاء ملك الصين ، فانه لا يشير الى قاض او شيخ للاسلام . فقط يشير الى اسم الشيخ برهان الدين ، الذي لايستبعد ان يكون حوله قلة من المسلمين الذين لايشكلون « جالية » . لكنه يسهب في وصف قصر « القان » بدقه مدهشه ، ويذكر انه لم يجده . في المدينه لدى وصوله ، اذ خرج لاحباط تمرد في داخل الملكة . وبعد عودته التقاه ، سلمه الرسالة ، على النحو الذي سجله هو في البداية ، ولكن ابن بطوطة لايذكر شيئا عن رد فعل ملك الصين ، بل يهتم ـ في وصف الرحلة على الاقل ـ بالعودة آمنا الى الهند .

وختم ابن بطوطة رحلته الى الصين على هذا النحو .

ونستطيع أن نسجل عدة ملاحظات من قراءة ما كتبه اشهر الرحالة والفضوليين العرب ، حول واقع المسلمين في الصين خلال القرن الرابع عشر ، في مقدمتها :

ـ ان ثمة انتشارا ظاهرا للمسلمين في الصين ، له حجمه وله تقديره ومكانته .

ـ ان المسلمين يمارسون نشاطات تتركز اساسا في قطاع التجارة بمختلف فروعه .

ـ ان وجود المسلمين يتركز على السواحل ، حيث مراسى السفن القادمة والمقلعة .

ـ ان المسلمين خليط من الفرس والعرب أساسا ، والترك بعد ذلك . ولم يشر ابن بطوطة الى مسلمين صينيين ، بحيث يمكن يقال انه حتى ذلك الحين ، فان بذور الاسلام لم تغرس في التربة الصينية بعد .

## عودة الى العزلة

على هذه الصورة ، طويت صفحة اسرة يوان المغولية ، لتبدأ صفحة جديدة في ظل اسرة ملكية جديدة ، اسرة مينج ( ١٣٦٨ ـ ١٦٤٤م ) التي اعادت العرش الى عرق الهان ، الذى تنتمى اليه الاغلبية الساحقة من ابناء شعب الصين .

كان المسلمون قد استقروا كوافدين الى الصين ، وكانوا قد بدأوا ينخرطون في مختلف نواحى الحياة الاخرى ، خصوصا الجيش ، من سلالة المجندين القدامى ، والزراعة ، حيث استقدم المغول اعدادا كبيرة من الزراع المهرة ، مع غيرهم ، من بلاد خراسان وما وراء النهر .

وبعد ما كانت اسرة يوان تنتهج سياسة الانفتاح على الآخرين ، فان اسرة مينج ، وهم الصينيون الأقحاح ، كانوا اكثرا ميلا الى سياسة العزلة ، الامر الذى قطع نسبيا جسور الاتصال بين المسلمين المقيمين في الصين ، واخوانهم في ديار الاسلام الاخرى . ولم تكن سياسة العزلة هذه موجهه ضد المسلمين باى حال ، ولكنها نهج طبيعي للسياسة الصينية ، له اسبابه التي سنتعرض لها فيما بعد .

افادت هذه العزلة ، في انها دفعت المسلمين الى الإندماج في الحياة العامة للاهالي ، فتزوجوا من صينيات ، ونقلوا بعضا من عادات اهل الصين واخلاقهم .

وفي الوقت ذاته ، فإن سياسة اسرة مينج تجاه المسلمين اتسمت بقدر معقول من الاعتدال بل والود احيانا . الامر الذى انعكس على امتيازات عديدة منحت للمسلمين ، واعداد كبيرة من المساجد بنيت في ظل تلك الاسرة .

ومن المسلمين الذين برزوا في تلك الفترة البحار

تشنج هو ( من مواليد مقاطعة يونان ) الذى كان يقود اسطولا تجاريا ضخما ، بمعايير ذلك الزمان ، ابحر به ٧ مرات خلال الفترة من ١٤٠٥ ـ ١٤٣٣م ، حيث زار ٣٥ بلدا اسيويا وافريقيا . في مقدمتها الموانى العربية العاملة آنذاك . وهو حدث لم يكن له مثيل في تاريخ الابحار قبل ذلك .

اما هاى زوى ، فقد دخل التاريخ الصينى باعتباره موظفا كفئا ونزيها ، وداعية الى العدل والفضيلة . حتى قدمت سيرته وشخصيته في اكثر من عمل مسرحى واوبرالى في السنوات الاخيرة .

ومن ناحية اخرى ، اقام ملوك اسرة مينج علاقات طيبة مع الامراء المسلمين الذين يحكمون الدول والمقاطعات غربي الصين . واكثروا من تبادل السفراء مع الامراء التيموريين ، وقد انتهز احدهم ـ الشاه رخ بهادر ـ فرصة قدوم احد السفراء الصينيين للقائه سنة ١٤١٢ في قصره بسمرقند ، وبعث برسالتين بالعربية والفارسية الى ملك الصين يدعوه فيها الى اعتناق الاسلام ، وتطبيق شريعة الله . وقد نشر الرسالتين عبد الرزاق السمرقندى في مؤلفه « مطلع السعدين ومجمع البحرين » . ونقلها توماس ارنولد في كتابه « الدعوة الى الاسلام » .

ويعقب توماس ارنولد على الرسالتين بقوله ، انه ليس ببعيد ان تكون هاتان الرسالتان قد خلقتا القصة ، التي نشأت في عصر متأخر ، التي روت ان احد اباطرة الصين قد تحول الى الاسلام . وقد روى هذه القصة ، مع غيرها من القصص ، تاجر مسلم يدعي سيد على اكبر ، قضى سنوات قليلة في بكين ، في نهاية القرن الخامس عشر واوائل القرن السادس عشر ، ويتحدث عن عدد كبير من المسلمين الذين كانوا قد استقروا في الصين ، فكان في مدينة كنجنفو عدد كبير يبلغ ثلاثين الف اسرة من المسلمين ، فلم يؤدوا الضرائب ، وتمتعوا بكرم الامبراطور ، الذي منحهم هبات من الارض ، ونعموا بالحرية في اقامة شعائر دينهم الذي كان الصينيون ينظرون اليه نظرة احترام وتقدير وترك أمر التحول الى الاسلام حرا ، وكان في العاصمة نفسها اربعة مساجد كبيرة ، وما يقرب من تسعين مسجدا غيرها في الولايات الاخرى من الامبراطورية ، وقد بنيت كلها على نفقة الامبراطور .

## علماء اربعة

وعدما انتهى عهد اسرة مينج ، واطل على الصين عهد جديد لدولة مانشو ( ١٦٤٤ ـ ١٩١١م ) كانت الاوضاع المستقرة للمسلمين قد افرزت قيادات فكرية رفيعة المستوى . فظهر علماء متخصصون في علوم القرآن والحديث والفقه والتوحيد . وخلف هؤلاء رصيدا كبيرا من المؤلفات القيمة ، التي اندثر اكثرها الآن . وفي مقدمة هؤلاء اربعة كبار يتناقل أسماءهم وسيرتهم العجائز من شيوخ المسلمين الآن ، ولاتذكرهم اى من المراجع التي تتحدث عن المسلمين هناك . فقد عاشوا حياتهم جنودا عظاما مجهولين ، وماتوا ودفنت ذكراهم ، ككل الابطال المجهولين . والعلماء الاربعة هم :

ـ الشيخ وانج داي يو ( حوالي ١٥٦٠ ـ ١٦٦٠ ) اول من كتب عن الدين باللغة الصينية ، ومن مؤلفاته : « الاجوبة الصحيحة على الدين الحق » و « حقيقة الاسلام » وكتب اخرى في التوحيد والفقه واحكام الدين .

ـ الشيخ ماتشو ( ١٦٤٠ ـ ١٧١١ ) مؤلف كتاب « ارشاد الاسلام » في عشرة اجزاء الذى طبع مرات عديدة .

ـ الشيخ ليوتشه ( ١٦٥٥ ـ ١٧٤٥ ) عالم معروف بكثرة مؤلفاته ومنها « حقائق الاسلام » في ستة اجزاء ، « سيرة خاتم الانبياء » في ٢٠ جزءا و « احكام الاسلام » في عشرين جزءا .

ـ الشيخ مافوتشو ( ١٧٩٤ ـ ١٨٧٣ ) مؤلف مرموق وفقيه متعمق في علوم الدين كان يقوم بالتدريس ويمارس التأليف معا . من مؤلفاته « خلاصة اصول الدين الاربعة » و « مقصد الحياة » و « تعريف روح الاسلام » و « احكام الدين » الخ .

ومن بين ما أفرزته هذه المرحلة ايضا ، ان المسلمين الذين صارت تجمعهم قومية هم ـ « المحمديون » ذوو الاصول الوافدة من الخارج ـ اصبحوا يحملون اسماء صينيه الى جانب اسمائهم العربية ، وان بعض الاسماء المتداولة في مجتمعات المسلمين اخذت صياغات صينية .

وعلى سبيل المثال فان اسم محمود عندما دخل في القالب الصيني فانه اصبح ينطق ( ما ) ومحمد اصبح ( مو ) وسعد الدين صار ( سا ) ونصر الدين اصبح ( نا ) ونور الدين ( نو ) .. وهكذا .

ومن حقائق هذه المرحلة ايضا ان تجمعات المسلمين لم تعد مقصورة على المناطق الجنوبية والساحلية من الصين وحدها ، ولكن ظهر الوجود المؤثر لمسلمى الشمال والغرب ، ومنهم مسلمو تركستان ـ التى ضمت الى

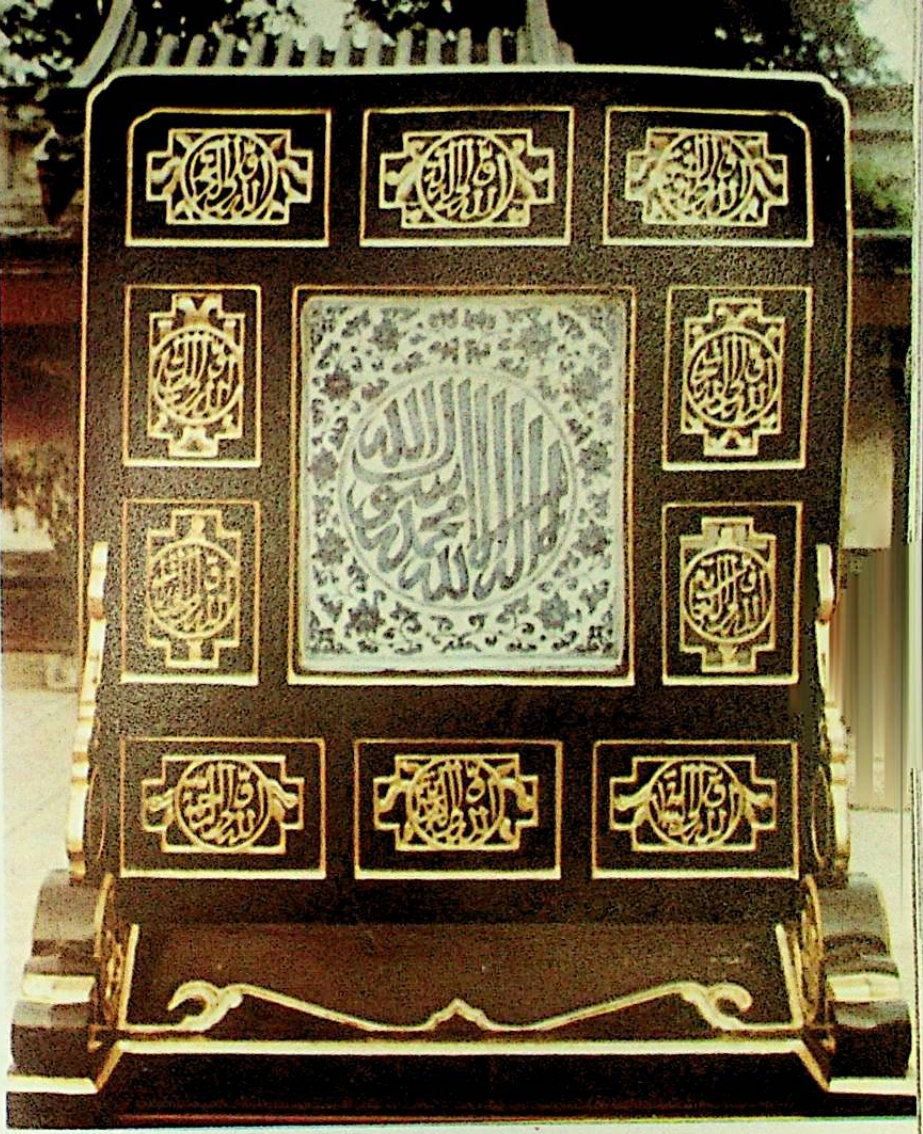

مجموعة من التحف الصينية القديمة ، من عهد اسرة يوان ، التي تحمل بصمات الوجود الاسلامي في الازمنة القديمة وهي من محفوظات الجمعية الاسلامية في بكين . والكلمات المدونة عليها سهلة القراءة : لا اله الا الله ، محمد رسول الله ـ و .. الحمد لله ، و .. لا اله الا الله . لقد اختفى هذا النوع من الخزف ، ولم يعد له وجود الآن ، وان كانوا يبيعون في بعض المناطق نماذج مصغرة لهذه القطع للسياح .

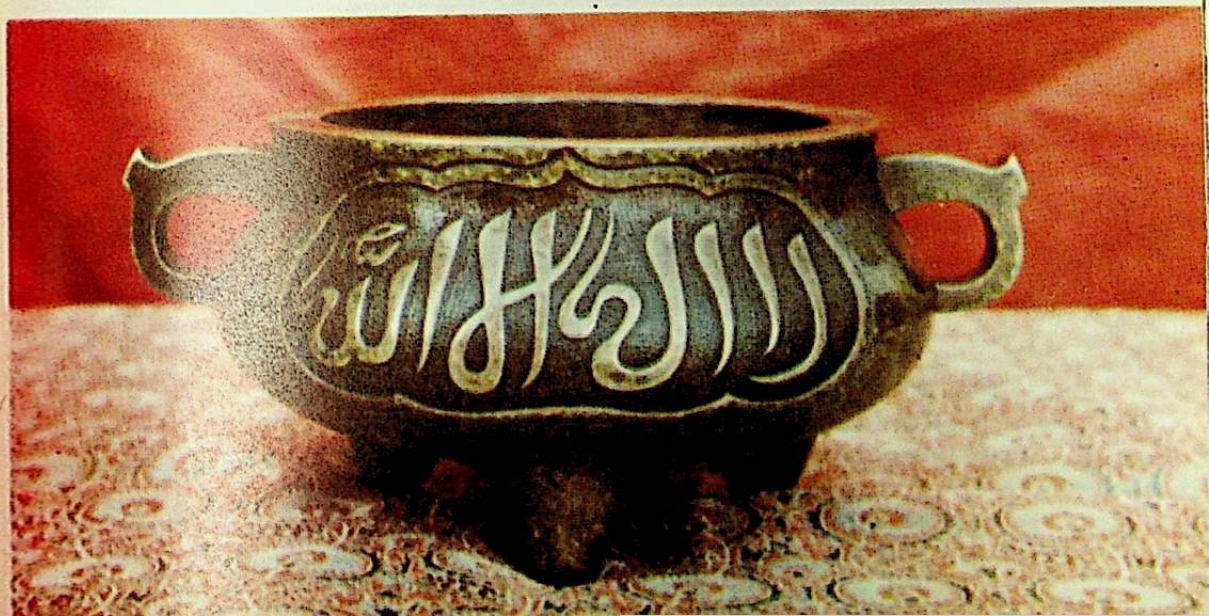

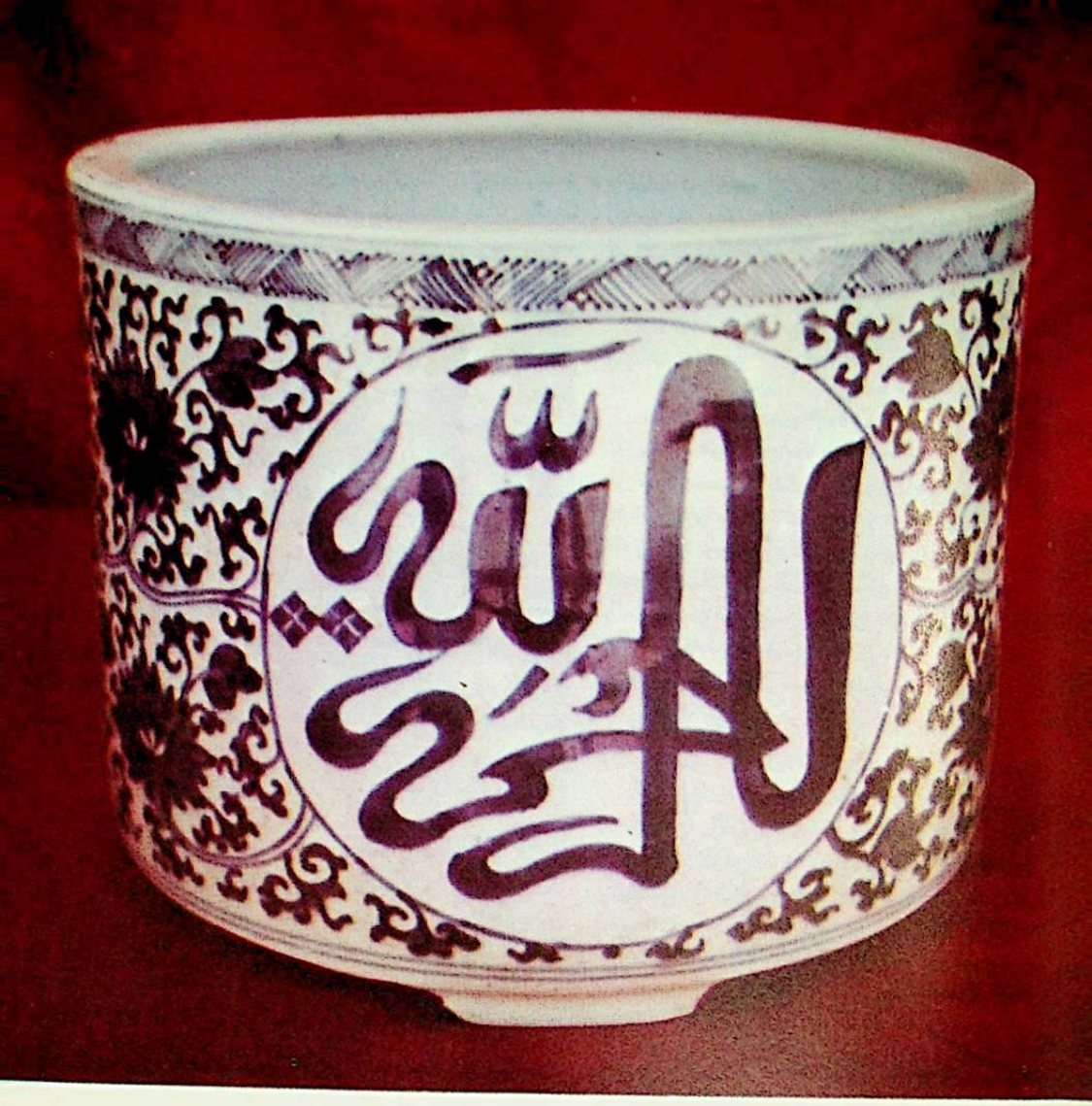

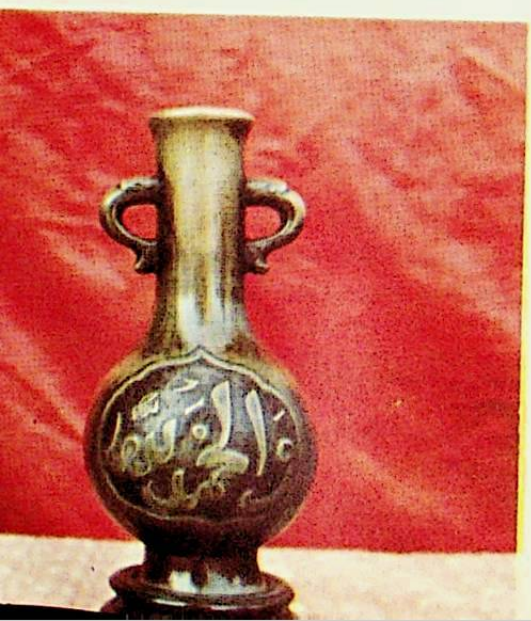

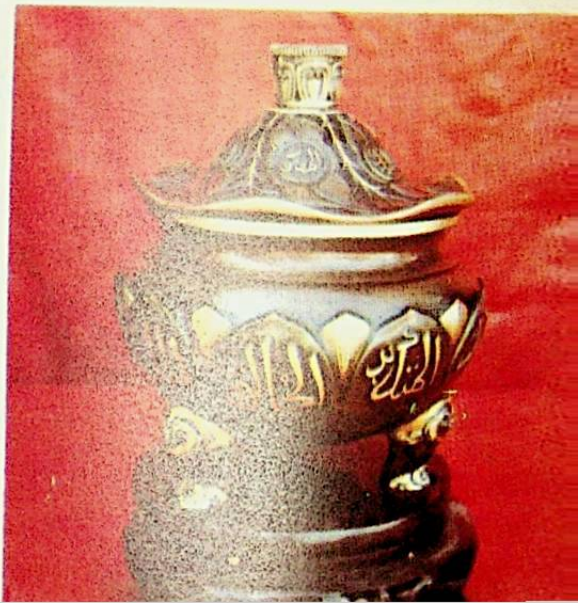

الصين ـ والمسلمون من ذوى الأصول المغولية مثل الاوزبك والقازاق والتتار ، وهم امتداد لقبائل بلاد ما وراء النهر .

اما المسلمون من ذوى الاصول العربية والفارسية ، سواء كانوا جنودا استقروا او مجندين اكرهوا على الانتقال الى الصين ، وقد سموا بقومية هوى ، فانهم لم تكن لهم مناطق تجمع محددة ، اذ كانوا مستجلبين قبل عدة قرون من الخارج ، وليسوا من قبائل مناطق الحدود كالاوزبك او الترك او غيرهم . هؤلاء انتشروا في انحاء الصين ، وتداخلوا اكثر من غيرهم في المجتمع الصيني . وفيهم حدثت ظاهرة « تصيين » الاسماء الاسلامية .

وهذا الانتشار ادى الى تنوع مجالات النشاط الاقتصادى للمسلمين . فبينما ظلت نشاطات مسلمى الجنوب هي التجارة اساسا ، اصبحت نشاطات مسلمى الشمال والغرب مركزة في الزراعة والرعي .

لكن الاهم من هذا كله ان المسلمين في تلك المرحلة اصبحوا يتصرفون لا باعتبارهم اجانب وافدين ، ولكنهم اصبحوا يتصرفون كمواطنين لهم حقوق يجب الدفاع عنها ، الامر الذى شجعهم على التمرد اكثر من مرة ، والثورة اكثر من مرة ، واستخدام السلاح في تحدى السلطة ، في كل مرة ، وهو مادفع المسلمون ثمنا باهظا له ، وجر عليهم ويلات وخرابا لاحدود له ، لكنه ـ من ناحية اخرى ـ سجل تاريخيا لصالحهم ، اذ صنفهم باعتبارهم مناضلين شجعانا ضد الاستغلال والظلم .

ولم يكن لهم خيار في ذلك ، بعدما استمرت في ظل اسرة مانشو سياسة العزلة التي انتهجتها على مدى ثلاثة قرون تقريبا اسرة مينج التي سبقتها . وتقطعت بذلك صلاتهم بالعالم الاسلامي الذى كان غارقا في شواغل وهموم اخرى . اذ ما ان ظهرت اسرة مانشو على مسرح الاحداث في منتصف القرن السابع عشر ، حتى كان الصفويون يثبتون اقدامهم في بلاد فارس . وقد حملوا المسلمين على اعتناق المذهب الشيعي ، الامر الذى اقام حاجزا مذهبيا بين مسلمى الصين وبلاد ما وراء النهر وافغانستان ، وبين سائر المسلمين من اهل السنة . وكانت الامبراطورية العثمانية مشغولة بتثبيت اقدامها في العالم العربي والامتداد في اوربا . وكان التنافس قائما بين العثمانيين والصفويين .

وبينما كان مسلمو الصين يعانون من الاضطهاد والعذاب في النصف الثاني من عهد اسرة مانشو ، القرن التاسع عشر ، كانت شمس الامبراطورية العثمانية تتجه الى المغيب . وكان على هؤلاء المسلمين ان يواجهوا قدرهم وحدهم . مسلحين بايمانهم فقط !

وقد بدأ عهد اسرة مانشو بداية لا تبشر بالخير ، من وجهة نظر المسلمين ..

## المسلمون يعلنون الثورة

فبعد ٤ سنوات فقط من تولي السلطة الجديدة عام ١٦٤٨ ، أعلن مسلمو قانصو ( هانج تشوفو ) الثورة ضد الحكومة . ورفعوا ـ لاول مرة في تاريخ مسلمي الصين ـ السلاح ضد السلطة مطالبين بالحرية الدينية . والمعلومات المتعلقة بهذه الثورة الاسلامية الاولى ، شحيحة للغاية . الا ان الحديث في ذاته يعنينا ، من حيث وقوعه اولا ، ومن حيث الاسباب التي ادت اليه ، والتي كانت مؤشرا لما هو قادم في المستقبل ، وان بعد نسبيا .

لقد اثارت نذر الظلم والتضييق على المسلمين واضطهادهم ، التي هبت ريحها مع قدوم اسرة مانشو ، شعورا عاما بالاضطراب والتوتر في صفوف المسلمين . وقد حاول الامبراطور يونج تشين في سنة ١٧٣١ ان يهدىء من روع المسلمين ، فاصدر بيانا هاما يحدد فيه سياسة حكومته تجاه المسلمين ، قال فيه ان المسلمين : « اعتبرهم كابنائي وانظر اليهم كما انظر الى بقية رعيتي ، تماما ، ولا افرق بينهم وبين الذين لا يدينون بالاسلام . وقد تسلمت من بعض الموظفين ظلامات سرية ضد المسلمين ، سببها ان ديانتهم تختلف عن ديانة غيرهم من اهل الصين ، وانهم لا يتكلمون بلغة الصين ، ويلبسون لباسا يختلف عما يلبسه سائر الاهالي . وهم متهمون بالعصيان والغطرسة والميول الثورية ، وقد طلب مني ان اتخذ ضدهم تدابير صارمة . فلما بحثت هذه الظلامات والاتهامات لم اجد لها اساسا من الصحة » . الى ان قال : « فاذا ظل المسلمون بعد ذلك يتصفون بما يتصف به الرعايا الاخيار المخلصون ، فسأبسط لهم رعايتي بقد ما ابسطها الى ابنائي الآخرين » . وأضاف الامبراطور في رسالته عن المسلمين : « انهم يجتازون امتحاناتهم في الآداب كما يجتازها اي انسان آخر . ويقومون بما يفرضه عليهم القانون من تضحية » *

* الدعوة الى الاسلام ـ توماس ارنولد .

بعد صدور هذا البيان بثلاثين سنة ، ثار المسلمون في كاشغر ، في الشمال الغربي ، وقد ساعد اثنان من بكوات الاتراك الصينيين على قمع هذه الثورة ، فتعاطف معهم الامبراطور كين لنج ، وبنى في بكين - يذكر بروم هول في كتابه « المسلمون ودولة المانشو » - قصورا لامثال هؤلاء البكوات ، ويقول ان الامبراطور بنى ايضا مسجدا ليصلي فيه بكوات الاتراك الذين يزورون القصر الامبراطوري ، وليصلي فيه اسرى الحرب الذين جيء بهم من كاشغر الى العاصمة . وكان بين هؤلاء الاسرى فتاة جميلة ، اصبحت جارية للامبراطور ، ونالت حظوة عنده . ويقال انه في سبيل حبها ، بنى هذا المسجد تجاه قصره مباشرة ، كما بنى قبة في فناء قصره ، فتمكنت الجارية من ان تشاهد منها ابناء وطنها وهم يصلون ، وان تشاركهم في عبادتهم . وقد بنى هذا المسجد من سنة ١٧٦٣ الى سنة ١٧٦٤ ، وهو يحتوي على نقش مكتوب باربع لغات ، كتب الامبراطور نفسه النص الصيني منه .

وبعد ثورة المسلمين في كاشغر ، ثار المسلمون مرة اخرى في زنجاريا ، مطالبين بالحرية الدينية ، ولكن الثورة قمعت ، ونقل اليها الامبراطور كين لونج ذاته في سنة ١٧٧٠ عشرة آلاف من العسكريين استجلبهم من انحاء الصين ، لاقرار الامن هناك ، ويقال انهم دخلوا الاسلام بعد ذلك .

## يبشرون بدينهم

ويستوقفنا في تلك المرحلة ، تقرير بعث به حاكم ولاية خوانشي الى الامبراطور كين لونج سنة ١٧٧٣ ، وهو يشير الى ان المسلمين لم يتوقفوا عن الدعوة الى دينهم بين الصينيين ، حتى في ظل مرحلة يسودها التوتر والقلق ، مثل حكم اسرة مانشو . وان اشتغالهم بالتجارة والزراعة لم يلههم عن عملية التبشير بالاسلام في تربة الصين الوعرة . في هذا التقرير يقول حاكم خوانشي :

« ان لي عظيم الشرف ان احيط جلالتكم علما بان مغامرا يدعى هانفوين ( الحنفي ) من ولاية خوانشي قبض عليه بتهمة التشرد . فلما سئل عن عمله ، اعترف بانه قضى عشر سنوات يطوف بشتى ولايات الامبراطورية كي يستطلع احوال ديانته . وقد وجدنا في احدى حقائبه ثلاثين كتابا ، كتب بعضها بنفسه ، وكتب بعضها بلغة لا يفهمها احد عندنا . وتمجد هذه الكتب ملكا من ملوك العرب يدعى « محمدا » ، في اسلوب مسرف يدعو الى السخرية وحين قدمنا هذا الضال الذي ذكرناه من قبل للتعذيب ، اعترف اخيرا بان الغرض الحقيقي من رحلته ان يدعو لهذا الدين الزائف الذين يتعلمونه من هذه الكتب ، كما اعترف بانه قضى في ولاية شانسي مدة اطول مما قضاه في اية ولاية اخرى . »

وفي ختام رسالته يطلب من الامبراطور :

« ان تأمروا باحراق صحائف الطباعة التي في حوزة اسرته ، وبالقبض على من حفظوها وبالقبض أيضا على من الفوا هذه الكتب التي ارسلتها الى جلالتكم ، رغبة في الوقوف على ما ترونه في هذا الامر » .

ان نشاط مثل هذا الداعية المسلم ، وظهور مفكرين وفقهاء مسلمين ، مثل الاربعة الذين اشرنا اليهم ، وهناك غيرهم بكل تأكيد ، ذلك يعني انه كانت في الصين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر على الاقل ، بوادر « مد اسلامي » ، لم يلق عناية من جانبنا ، وهو الذي تنبه اليه ورصده المبشرون الاجانب والمستشرقون .

فتوماس ارنولد يذكر - مثلا - « أن أحد رسل الجزويت في بكين كتب في سنة ١٧٢١ يقول ان طائفة المسلمين يتزايد اعدادها شيئا فشيئا » .

وينقل عن دوهلد ايضا قوله عن مسلمي الصين في القرن الثامن عشر : انهم سائرون منذ سنين في تقدم ملحوظ بفضل مالهم من ثروة . فهم يشترون الاطفال الوثنيين حيثما كانوا ولا يجد آباء هؤلاء الاطفال غضاضة في بيعهم ، لعجزهم دائما عن توفير القوت لهم . وفي اثناء المجاعة التي خربت ولاية تشنتنج ، اشترى المسلمون ما يربو على عشرة آلاف من هؤلاء الاطفال . ويتزوج المسلمون بالصينيات ، ويشترون لهم الدور ، او يبنون لهم في المدينة احياء مستقلة ، بل قرى باكملها ، وحصلوا شيئا فشيئا على مثل هذا النفوذ بدرجات عدة ، حتى انهم لم يتيحوا لاي شخص لا يذهب الى المسجد ان يعيش بين ظهرانيهم . وبمثل هذه الوسائل تضاعف عددهم الى حد كبير ، خلال القرن الماضي » .

واتجاه المسلمين الى التبشير بدينهم على هذا النحو ، يعكس المدى الذي بلغه حرصهم على نشر الاسلام بمختلف الوسائل داخل الصين ، وقد يكونون مدفوعين في ذلك بنية خالصة لوجه الله . وربما حفزهم على ذلك أيضا حرصهم على الاكثار من اعدادهم باعتبارهم اقلية صغيرة للغاية - نسبيا - وسط بحر البشر من قومية الهان ، التي كانت تتراوح معتقداتها بين البوذية والتاوية والوثنية .

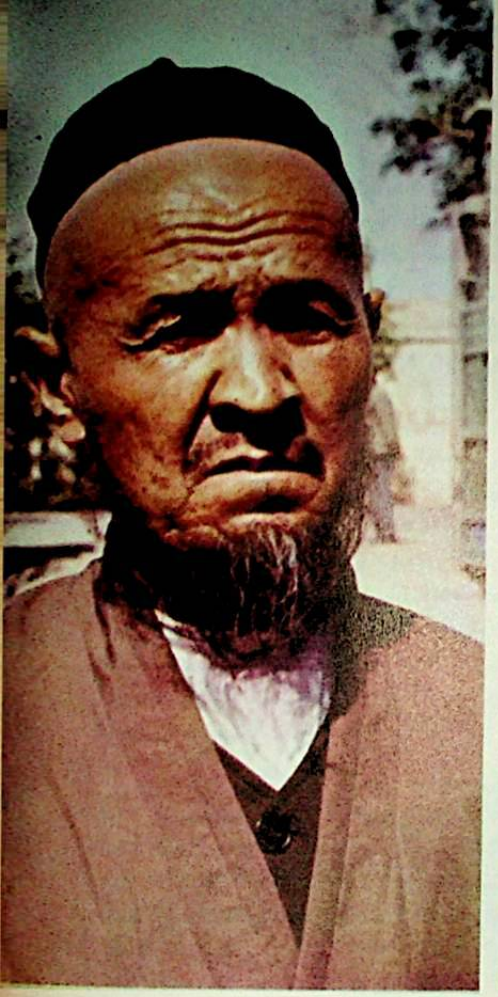

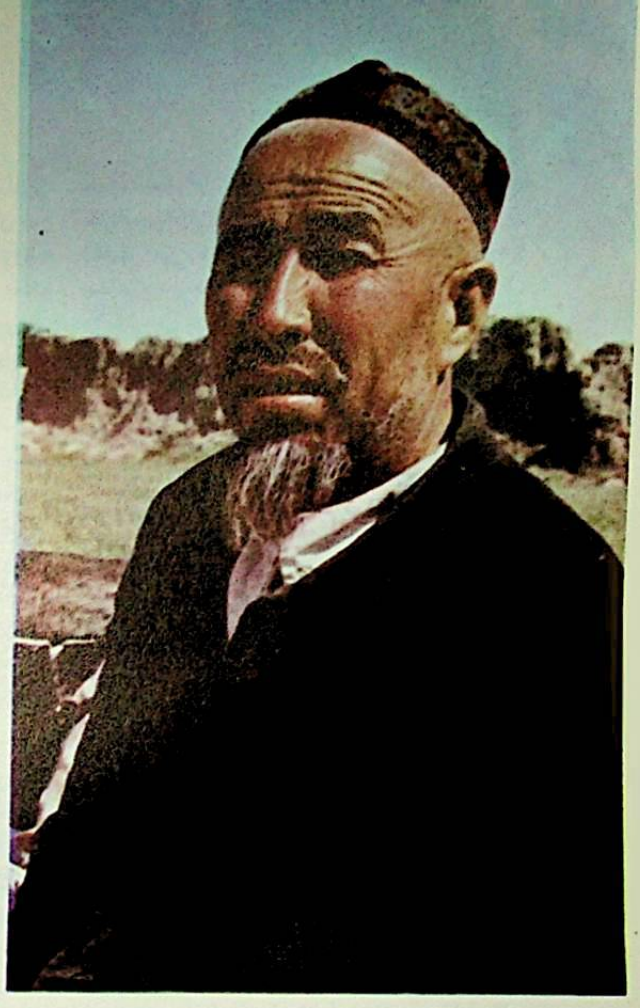

وجوه لمسلمي الصين في منطقة سينكيانج التي تتمتع بالحكم الذاتي ، ويغلب عليها العنصر ذو الاصل التركي ، وهم يعيشون جنبا الى جنب مع غيرهم من الاوزبك والطاجيك والمغول ، والصورتان الفوقيتان لاثنين من الائمة في مدينة اورموش عاصمة المقاطعة ، والصورة الى اليسار لجدة محجبة مع ابنتها التي ارتدت ثوبا اوزبكيا .

## مواطنون لا اجانب

ومع ذلك ظل المسلمون يتصرفون ـ ككل الاقليات ـ بوعي وحذر شديدين .

فقد كانوا حريصين على الا يظهروا باي مظهر متميز عن الصينيين ، حتى لا يلفتو الانظار اليهم ، ولكي لا يتركوا انطباعا لدى الصينيين بانهم « اجانب » . واثناء جولتي في المدن والقرى الصينية ، لاحظت ان اكثر المساجد بغير مآذن ، ووجدت مساجد مصممة على الطراز الصيني . بحيث لا يمكن ان يفرق الناظر اليها من الخارج ، بينها وبين اي معبد او منشأة عامة في الصين . من ذلك على سبيل المثال مسجد تشي جان راسي ( بيت الله العلي ) في شيان ، الذي بني في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي .

وقيل لي ان سر عدم بناء مآذن فوق مساجد المسلمين ، يرجع الى انهم لجأوا الى هذا الاسلوب مراعاة لشعور الصينيين ، وتجنبا لاستفزازهم ، وهم الكارهون بالطبيعة للاجانب .

وفي ثيابهم ومظهرهم كان المسلمون لا يتميزون في شيء عن الصينيين ، بل كانوا يذوبون بينهم ، حتى لا يكاد يعرفهم احد لاول وهلة . فاغطية رؤوسهم ، وثيابهم الفضفاضة الواسعة ، وضفائر الشعر ، هذه كلها كانت جزءا لا يتجزأ من مظاهر المسلمين . في المسجد فقط ، كان الشيوخ يضعون العمامة ، والمصلون

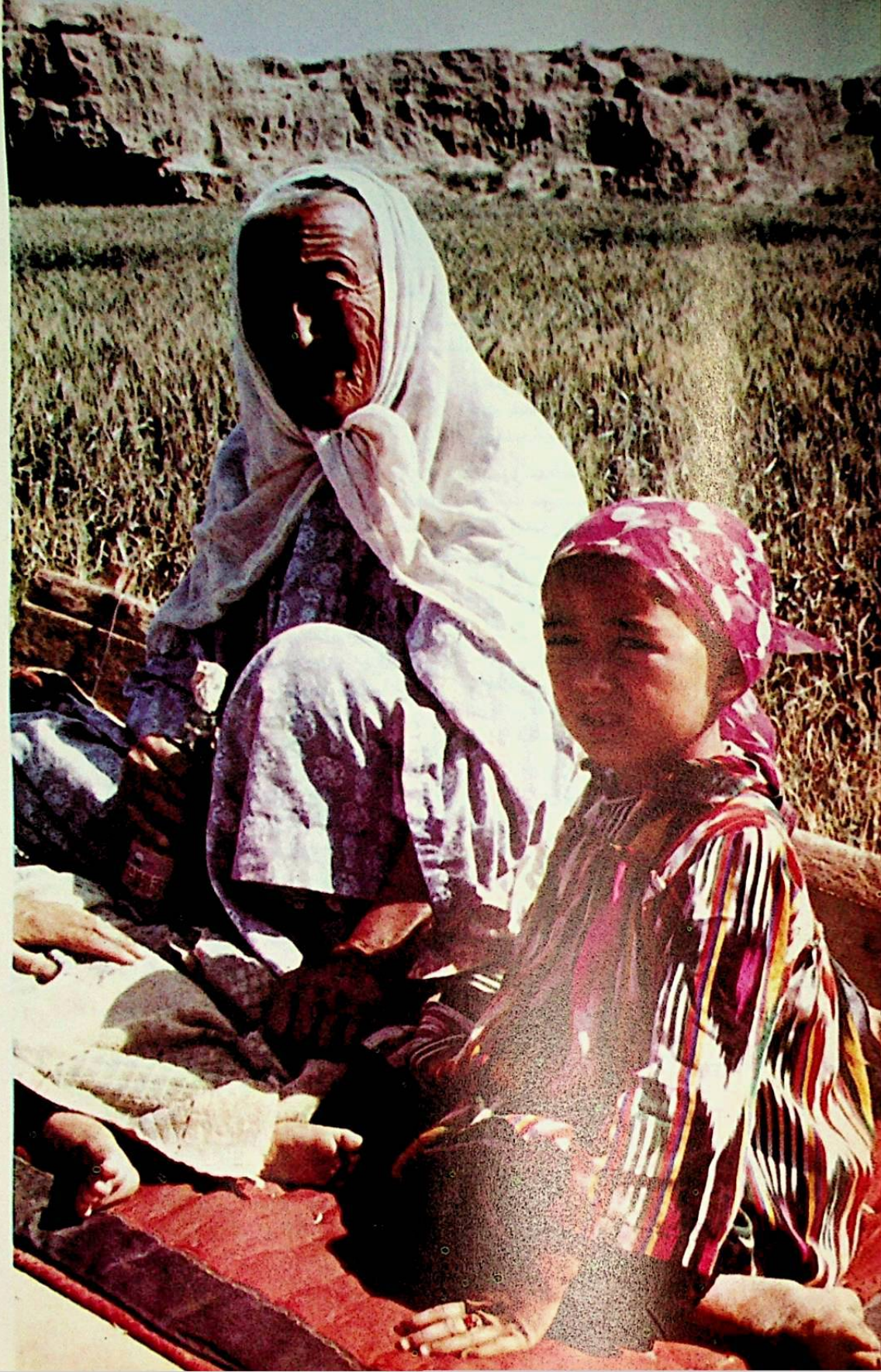

العاديون يرتدون « الطاقية » البيضاء في الاغلب ، والسوداء استثناء .

وفي هذه النقطة يقول توماس ارنولد ان القانون فرض ان يكون في كل مسجد لوح للامبراطور منقوش عليه « عاش الامبراطور الخالد الى الابد » . وكان المسلمون يسجدون امامها جريا على العادة الصينية المتبعة ، وكانت لهم حيل عديدة في التخلص من ذلك ، ارضاء لضمائرهم وتفاديا من الاتهام بالوثنية . حتى في بلاد التتار الصينية ، التي كان مباحا فيها للمسلمين امتياز خاص يخول لهم ان يعيشوا غير مندمجين في غيرهم ، وان يكونوا طائفة منفصلة ، كان كبار الموظفين من المسلمين يرتدون الزي المخصص لمناصبهم ، ويرسلون شواربهم ، وجدائل شعرهم ، ويقومون في ايام العطلة بما كان مفروضا على الموظفين من شعائر الولاء المعهودة ، لصورة الامبراطور ، وذلك بان يسجدوا لها ثلاث سجدات . وكذلك كان جميع اصحاب المناصب من المسلمين وغيرهم من الموظفين ، في الولايات الاخرى ، يؤدون في ايام الاعياد والشعائر الخاصة بوظائفهم في معابد كنفشيوس . والواقع ان المسلمين احتاطوا كل الحيطة كي لا يظهر دينهم بمظهر المعارض لدين الدولة ، وقد نجحوا ، من اجل هذا ، في تجنب الكراهية التي كان الصينيون ينظرون بها الى اصحاب الديانات الاجنبية ، كاليهودية والمسيحية .

ورغم حذر المسلمين وحيطتهم البالغة ، فان هذا الحذر لم يمنع القدر !

## مسلسل الثورات والمذابح

ذلك ان حكم المانشو ظل يمارس قدرا من الظلم على الناس ، والاضطهاد للمسلمين ، كان فوق طاقة احتمالهم ، فهبوا في ثورات متتابعة خلال القرن التاسع عشر ، وشملت مقاطعات يونان وقانصوة وتركستان .

وكانت هذه الثورات تقابل بقمع شديد ، وصل الى حد المذابح ومحاولة الابادة . الامر الذي ادى بالفعل الى تناقص عدد المسلمين في انحاء تلك البلاد ، بعدما راح مئات الالوف ضحية هذه المذابح الوحشية .

وكان ذلك كله يجري وراء اسوار الصين . دون ان يعلم احد ، واكاد اقول انه في تلك المرحلة لم يكن احد في العالم الاسلامي مستعدا لغوث ، او حتى الاستماع الى توسلات وانين مسلمي الصين ، خصوصا بعدما شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر بداية انهيار الدولة العثمانية ، وتفسخ العالم الاسلامي ، حيث وزعت تركة « الرجل المريض » على دول الغرب ، من انجلترا وفرنسا الى ايطاليا والمانيا .

وخلال مائة سنة ، في الفترة ما بين ١٧٥٨ و ١٨٧٣م ، انفجرت خمس ثورات كبرى لمسلمي الصين ، نستطيع ان نتصور حجمها من عدد الكتب الرسمية التي صدرت عنها ، مسجلة لكل تفصيلات احداثها ، كعادة مؤرخي الاباطرة في الصين منذ الازمنة القديمة .

ففي سنة ١٧٥٨ اندلعت ثورة المسلمين في ولاية قانصو بقيادة سوسي سان ، وسجل تاريخها في ٢٠ جزءا من الكتب الرسمية .

ـ وفي مقاطعة سينكيانج ، شبت ثورة جنقخ ، واستمرت سنتين ، من ١٨٢٥ الى ١٨٢٧ وصدر في تأريخ وقائعها ٨٠ جزءا .

ـ وفي سنة ١٨٥٥ انفجرت الثورة في مقاطعة يونان ، بقيادة سليمان دووين سياو ، واستمرت ١٨ عاما ، وسجلت في ٥٠ جزءا .

ـ وفي السنة ذاتها ١٨٥٥ اندلع لهيب الثورة في مقاطعات سنكيانج وقانصو وشانسي واستمرت هذه الثورة بقيادة يعقوب بك ، طوال ٢٠ عاما . وقد سجلت أحداث هذه الثورة في كتاب من ٣٣٠ جزءا !

وهكذا كانت احاديث هذه الثورات الاسلامية العارمة قد ملأت مجلدات ، مما يتعذر الالمام به او حتى تلخيصه ، الا ان ثورة يونان لها ملابسات خاصة جديرة بالذكر والانتباه .

## من المسلمين الى جلادستون

فتلك الثورة فجرها حادث صغير ، بعض الصينيين والمسلمين اتفقوا في سنة ١٨٥٥ على استخراج الفضة من منجم في منطقة ( تالي فو ) ، وبعد انتهاء المهمة حاول الصينيون الاستئثار بالكسب ، فثار المسلمون ، الذين لم يسكتوا ، واشتبك الفريقان وسقط منهم قتلى ، ولكن حاكم المقاطعة انحاز الى صف الصينيين ، وكتب الى الامبراطور يطالب بقمع المسلمين . فتوجهت قوات الامبراطور الى مناطق المسلمين لتأديبهم ، وكانت قيادة المسلمين لاحد العلماء ، اسمه ماتيه سنج ، وكان مساعداه هما القائدان ماهسين ( حسين ؟ ) ودووين سيا ، وفي اول مواجهة انتصر المسلمون على قوات

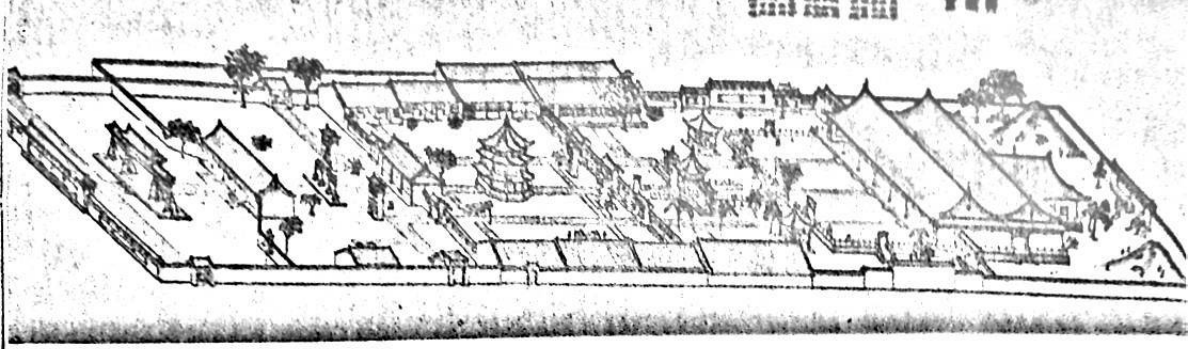

تصميم مسجد تشي جان واسي في سيآن ، لاحظ المسافة بين باب المسجد وقاعة الصلاة فيه ، والمئذنة على الطريقة الصينية في الوسط ، ثم لاحظ تل التراب الذى وضع خصيصا خلف قاعة الصلاة ، لرؤية هلال رمضان .

الامبراطور ، واضطرتها الى طلب الهدنة . ولكن الامبراطور استخدم الحيلة ، واستمال الى جانبه ماتيه سنج بالانعام والعطايا ، كما استمال ماهسين ، بترقيته الى رتبة قائد في الجيش الصيني .

وبعد ان تحركت قوات المسلمين واستولت بعد عناء على تالي فو عاصمة المقاطعة ، وشقت طريقا الى بورما للحصول على التموين والسلاح ، بعد ذلك نجحت حيلة الامبراطور ، وطلب ماتيه سنج وماهسين من المسلمين القاء السلاح . ولكن دووين سياو رفض الاستجابة لدعواهم ، واصر على تخليص يونان من عرش الامبراطور ، متشبثا بالانجازات التي حققها المسلمون .

ولقى دووين سياو تأييدا من المسلمين ، حتى اختاروه ملكا عليهم ، ولقبوه بالسلطان سليمان سنة ١٨٦٨ . فجعل عاصمة ملكه تالي فو ، وظل صامدا يقاوم القوات الصينية ، ويحول بينها وبين السيطرة على يونان .

وهنا تروي ( دائرة معارف القرن العشرين ـ فريد وجدي ) ، قصة ملفتة للنظر . تقول انه في سنة ١٨٧٠ وصل الى الصين القائد الانجليزي ( سلادن ) في بعثة سياسية ، فسعى بعض زعماء المسلمين الى لقائه ، وطلبوا منه ان يحث حكومته على مساعدتهم في تأسيس مملكة اسلامية بالقرب من بورما ، في مقابل تاييدهم للانجليز عند اللزوم ، فاشار سلادن على الزعماء المسلمين بان يوفدوا الامير حسن ابن السلطان سليمان الى انجلترا ، ليبحث الامر مع الحكومة الانجليزية .

وبالفعل ـ تقول الرواية ـ سافر الامير حسن الى لندن ، والتقى برئيس الوزراء الانجليزى جلادستون الذى لم يرحب بالفكرة ، واعتذر عن تدخل انجلترا في شئون مسلمى الصين .

وعندئذ قرر الأمير حسن ان يطرق بابا آخر . فاتجه الى الاستانة ، والتقى بالسلطان عبد العزيز ، الذي اظهر رغبة شديدة في الاستجابة الى طلبه ، ولكنه اعتذر بان الظروف لا تمكنه من ذلك .

وعندما عاد الامير حسن الى يونان في سنة ١٨٧٣ ، وجد ان الحكومة الصينية قد قضت على مقاومة المسلمين في يونان . وان اباه انتحر بالسم في يناير من نفس السنة ، وان ثلاثين الفا من المسلمين قد ذبحوا ، في حملة تأديب عنيفة ، بينما لجأ ألوف آخرون الى بورما .

وخلال حكم اسرة المانشو ، لم يقتصر الامر على هدم الدور والمساجد ومصادرة الحريات والاملاك ، بل ذهبوا الى حد تحريم ذبح البقر ، ليضطر المسلمون الى اكل لحم الخنزير ، امعانا في المهانة والاذلال ، الامر الذي تصدى له المسلمون بكل عنف ، وتحدوه بكل قوة . ومنع المسلمون من السفر لاداء فريضة الحج ، فكانوا يتحايلون باساليب مختلفة لاداء الفريضة ، فاصدرت حكومة المانشو قرارا يمنع المسلمين الذين يسافرون للحج او حتى لطلب العلم ، من دخول الصين عند العودة . فنشأت بينهم عادة غريبة ، وهي عادة الحج بالنيابة . وتوافد عليهم فقراء المسلمين من الامم القريبة لينوبوا عنهم في الحج باسمائهم .

وقد كان سلاح الضرائب واحدا من السياط الحادة التي ظلت تلهب ظهور المسلمين طوال حكم اسرة المانشو .

وعلى سبيل المثال فان مقاطعات الشمال المسلمة ظلت تعيش في ظل اربعة من امراء الاقطاع ، الذين تولوا استغلال المسلمين وتأديبهم بصورة بشعة . فقد كانت الضرائب المفروضة على اهالي مقاطعة ينجشا تتسع لتشمل الخيول والابقار والجمال والخراف ، والطيور المنزلية ، وحمل الملح ، واستهلاك الملح ، ولمبات الغاز ، والطعام والخشب ، والفحم ، والجلود ، والحفلات ، والدخان ، وذبح الحيوانات ، والري والطواحين ،

في عاصمة سينكيانج ، المساجد شديدة التواضع ، وامكانياتها شديدة الفقر ، في مصحف واحد يقرأ الجميع ، والامام يحضر يوم الجمعة مصحفا آخر من الهدايا التي تقدم للجمعية الاسلامية والتي يحفظ اكثرها في المخازن ، سواء في العاصمة او الاقاليم .

والخضراوات ، الى غير ذلك من محتويات القائمة المذهلة التي لا يمكن ان يصدقها عقل !

وكان الامراء يحتكرون تجارة الملح . ولذلك كان كل فرد ملزما بأن يشتري كل شهر رطلا من الملح ، استعمله ام لم يستعمله ،وكان محرما عليه ان يبيعه ،والا عوقب بالجلد ، واذا ما ضبط متلبسا بهذه « الجريمة الشنعاء » ، فانه يعاقب بالموت .

يموت المسلم اذا باع حفنة من الملح .. هذه هي قيمته !

## بعثة السلطان عبد الحميد

ويبدو انه ما ان قارب القرن التاسع عشر على نهايته حتى كان المسلمون قد انكسرت شوكتهم في الصين ، بعدما منيت تلك الضربات القاصمة . فلجأوا الى مهادنة الحكومة ، مستخدمين « الاساليب السلمية » في ممارسة نشاطاتهم . ومن جهة اخرى ، فان حكومة المانشو لم تمانع في هذه المهادنة ، وقد اطمأنت الى انها قابضة على زمام الامور في مناطق المسلمين بيد من حديد ، ممثلة في عسكر الامبراطور وقوانينه الصارمة .

لقد رأى كل طرف مصلحة له في المهادنة ، لكن الجراح بقيت كما هي ، غائرة وعميقة ومستعصية على الالتئام .

وتسجل السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر ، وبدايات القرن العشرين ظاهرة توجه المسلمين الى مختلف النشاطات التربوية والتعليمية . فقد استطاع امام مسجد بكين الشيخ الياس عبد الرحمن وانج ، ان يحصل من السلطات الحكومية على موافقة لانشاء اول معهد اسلامي بالمدينة ، سنة ١٩٠٣ ، واول مدرسة ابتدائية لابناء المسلمين ، كانت تدرس ـ لاول مرة ـ اللغة العربية الى جانب اللغة الصينية ، وتتداول فيها الترجمة الصينية للقرآن الكريم والاحاديث النبوية . وكان تعليم ابناء المسلمين يتم قبل ذلك ـ اذا تيسر ـ من خلال « الكتاتيب » المنتشرة في القرى ، ثم من خلال المدارس الحكومية بعد ذلك .

في تلك الظروف ـ تذكر الانسكلوبيديا الفرنسية ـ حاول السلطان عبد الحميد ان يقيم علاقات مع مسلمي الصين ، وان يتقصى اخبارهم . فأوفد أحد رجاله ، انور باشا ، وهو غير ناظر الحربية الشهير ، الذي وصل الى بكين سنة ١٩٠٠ ، ولكن مهمته لم تنجح .

وفي الوقت ذاته ، زار الاستانة امام مسجد بكين ، الشيخ الياس عبد الرحمن ، الذي اتيح له ان يلتقي بالسلطان عبد الحميد ، واقترح عليه ارسال بعثة اسلامية الى الصين . ولقيت الفكرة قبولا عنده ، وهو الذي سعى الى ذلك من قبل ـ فاوفد السلطان اثنين من المسلمين الاتراك ، هما رضا وحسن حافظا ، اللذان اسسا مدرسة ضمت ١٢٠ طالبا في مسجد ( نيوجاه ) القائم الى الآن في العاصمة .

ولكن العهد لم يطل بهذه الهدنة الى الحد الذي يسمح للجراح بان تندمل ، لان عرش اسرة المانشو كان يواجه اعاصير تزلزله . من ناحية اخرى كانت الجمعيات السرية قد انتشرت في الامبراطورية ، ثائرة على الفساد المستشري في الحكم ، وعلى الطغيان والظلم ، وعلى تحويل البلاد بصورة مهينة الى منطقة نفوذ مقسمة لحساب الدول الاوروبية والولايات المتحدة ، وعلى تخاذل اسرة مانشو وهزيمتها امام اليابان . و .. و .. الخ .

كان السوس قد استشرى في جسد امبراطورية المانشو حتى بلغ النخاع ، ولم يكن هناك بديل عن الثورة ، واستئصال اصل الداء ، اسرة المانشو ، بل والاطاحة بالعرش الامبراطوري كله .

وفي حين كان المسلمون يخوضون الصراع ضد اسرة المانشو ، ويفجرون الثورات في الجنوب والشمال والغرب ، كانت القوى الوطنية الصينية تمهد لخوض معركة مريرة وشرسة ضد الاسرة ذاتها ، بكل ما يمثله نظام حكمها من شرور .

كان المسلمون والوطنيون الصينيون يقفون في خندق واحد ، لانهم كانوا في محرقة واحدة ، ويكتوون بنار واحدة .

وعندما نجحت الثورة الوطنية واعلنت الجمهورية في عام ١٩١٢ ، بدأت صفحة جديدة في تاريخ الصين .

■■

العدد القادم

**مسلمو الصين**

**من التحرير الى الثورة الثقافية**
**مروراً بالقفزة الكبرى**